



كتاب
الأمّة

سلسلة فضائية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

٤٣

المنهج النبوي والتغيير الحضاري

برغوث عبد العزيز بن مبارك



كتاب
الأمم
Al Ummah

سلسلة فصلية تصدر عن مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر

ص . ب : ٨٩٣ - الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها ويسهم بالتحصين الثقافي والتغيير الحضاري وترشيد الصحو في ضوء القيم الإسلامية .
- أن يتسم بالأصالة والإحاطة والموضوعية والمنهجية .
- أن يشكل إضافة جديدة وألا يكون سبق نشره .
- أن يوثق علمياً بذكر المصادر والمراجع التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية وأسماء السور وتخريج الأحاديث .
- أن يستعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي والسياسي ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق .
- أن يكون البحث بخط واضح ويفضل أن يكون مكتوباً على الآلة الكاتبة وألا يزيد عن مائة صفحة (حجم فولسكاب) تقريباً .
- يفضل إرسال صورة عن البحث لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد ولا تسترد سواء اعتمدت أم لم تعتمد .

تقدم مكافأة مالية تتناسب مع قيمة البحث العلمية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المنهج النبوي والتغيير الحضاري

الطبعة الأولى
رمضان ١٤١٥ هـ
شباط (فبراير) ١٩٩٥ م

٢١٠ر١

برغوث عبدالعزيز بن المبارك
المنهج النبوي والتغيير الحضاري / تأليف برغوث عبدالعزيز بن مبارك .
الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ١٩٩٥ م .
١٥٧ ص ، ٢١ سم . (كتاب الأمة ٤٣) .
(ايداع : ١٩٩٤ / ٥) .
الرقم الدولي (ردمك) : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١
١ - الإسلام والمجتمع . ٢ - الإسلام والحضارة .
أ . العنوان ب . السلسلة .

حقوق الطبع محفوظة
لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بدولة قطر

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٢٥ جنيهاً
عمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	٨ دراهم
اليمن	١٢ ريالاً
○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقى دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله .	



كتاب
الإمامة
Al Imamah

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برق : الأمانة - الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٥ لسنة ١٩٩٥ م

الترقيم الدولي : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١

قال تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

(الجمعة)

تقديم

بقلم : عمر عبيد حسنه

الحمد لله ، الذي أنزل القرآن، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه ، وجعله للناس شرعة ، ومنهاجاً ، واعتبر العدول عن منهجه ، والالتزام بحكمه ، عدولاً عن الحق ، ووقوعاً في الهوى والضلال ، وحذر الرسول ﷺ ، والسائرين على طريق الاقتداء والتاسي ، من الفتنة التي يكون بها العدول عن بعض ما أنزل الله ، بقوله :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ وَأِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾

(المائدة : ٤٨ - ٤٩) ، ذلك أن العدول عن بعض المنهج ، عدول عن الكل .. كما أن التعديل في بعض جوانب المنهج ، هو عدول في حقيقة الامر ، وسقوط في علل التدوين ، التي وقعت بها الامم الماضية ، من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر ، ومالحق بها بسبب ذلك ، من الخزي والسقوط في الدنيا ، والعذاب الاليم في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ... ﴾ (البقرة : ٨٥) .

ولقد اعتبر الله حال الذين جعلوا القرآن (الشرعة والمنهاج) تفاريق وأجزاء، يؤخذ بعضها، ويترك بعض - هؤلاء الذين جعلوا القرآن عضين - كحال المقتسمين الذين سبقوهم من الأمم السابقة، فافسدوا على الأمة منهجيتها القرآنية، وأوقعوها في الهوى والضلال، والمعاصي، والإصابات، التي تعاني الأمة من آثارها اليوم، أو التي تشكل أزمته الحقيقية، وتتسبب فيما يقع عليها من العقوبات، وما يمارس عليها من الفتن، والمساومات من (الآخر) لإخراجها عن بعض ما أنزل الله عليها، قال تعالى :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ قَوْلَ رَبِّكَ لَنَنْشَأَنَّ هُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الحجر : ٩٠-٩٣) .

والصلاة والسلام على الرسول القدوة، الذي أصل المنهج الإنهجي، وبئنه، وجسده، في واقع الناس، في ضوء هدايات الوحي الأعلى، ومن خلال عزومات البشر، واستطاعاتهم، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، متمثلاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِحَبْلِ الْوَعْدِ لَكُمْ تَقْوَىٰ ﴾ (الأنعام : ١٥٣) ، فوضع بسنته، وسيرته، منهج الوصول إلى التمكين في الأرض، وتحقيق مهمة الاستخلاف الإنساني، والعمران البشري، في الدنيا، والفوز والنجاة في الآخرة، ومثل لسبيله هذا بخط مستقيم واضح، ودعا لاتباعه على بصيرة، ومثل للمناهج الأخرى ، من على يمينه وشماله ، بخطوط متعرجة، يقف على رأس كل منها شيطان، يغري باتباعها .

وبعد :

فهذا كتاب الامة الثالث والاربعون : « المنهج النبوي والتغيير الحضاري » ،
للاستاذ برغوث عبد العزيز بن المبارك، في سلسلة : « كتاب الامة » التي
يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، في
دولة قطر، مساهمة في استرداد شخصية المسلم المعاصر، وتحقيق الوقاية
الفكرية، والحصانة الثقافية، وإعادة بناء المرجعية الشرعية، وتشكيل مركز
الرؤية، في ضوء هدايات ومعارف الوحي، وتجارب ومكتسبات العقل،
وإعادة بناء الوعي، بالمنهج النبوي في التغيير، والتحويل الثقافي، وتبيين
الاسباب، التي حالت دون منهج النبوة، وحسن التعامل معه، وامتلاك القدرة
على إنتاج النماذج المأمولة، التي تحقق خلود المنهج، القادرة على حمل أمانة
الاستخلاف، والعمران، وإدامة البحث والنظر، في ظروف وشروط ميلاد
المجتمع الأول القدوة، مجتمع خير القرون، واستيعاب جميع المراحل التي مر
بها، ووسائل توفيرها، للإفادة منها في عمليات النهوض، وتجاوز الواقع، وردم
فجوة التخلف، من أجل أن يستأنف المسلم رسالته، ويقوم بالدور الذي ناطه
الله به، في إلحاق الرحمة بالناس، مستمراً إمكاناته الروحية، والذهنية، والمادية
كلها، ومنطلقاً من ذاتيته الخاصة، ومرجعيته الشرعية، على طريق النهوض،
وتحقيق الإرادة، والإفادة من الإمكان الحضاري، وفك قيود التحكم،
والارتهاق الثقافي، ومعالجة أسباب التقليد الجماعي والتخاذل الفكري .

وقد تكون الحاجة اليوم، أشد من أي وقت مضى، وقد اشتدت الفتن،
وكثر الغثاء والادعاء الثقافي، وشاع مناخ التضليل والضلال، وتطبيع الهزيمة،
وتقطيع الرؤية الإسلامية، لإيجاد المسوغات للسقوط الحضاري ، والفلسفات
لتكريس الهزائم على الأصعدة المتعددة ... قد تكون الحاجة اليوم، أشد من
أي وقت مضى، إلى اللجوء إلى المنهج النبوي ، والاحتماء والتشبث به،

والعض عليه بالنواجذ، خوفاً من الاقتلاع والضياع، ومن ثم محاولة استقراره بوعي وإحاطة، وقراءة الواقع، والحال الذي صار إليه، والتعرف على أسبابه، ومحاولة تحديد المكان والموقع المناسب، الذي يمكن أن يوضع فيه هذا الواقع، من خلال المنهج النبوي في التغيير، ومسيرة السيرة النبوية، من خلال استيعاب المراحل كلها، لتكون كل مرحلة نموذجاً ومحل اقتداء للمرحلة التي تآملها في واقع الأمة، ابتداءً من مرحلة الاستضعاف، والاحتفاظ بالإيمان في القلب، والاقترار على كف اليد، وإقامة الصلاة، حتى تتوفر الإمكانيات، ويحضر الواقع، وانتهاءً بمرحلة التمكين في الأرض، والدفاع عن إنسانية الإنسان، وتحقيق حرية اختياره، والحيلولة دون افتتانه .. أو ابتداءً من مرحلة: ﴿اقرأ﴾ كمدخل وسبيل إلى التغيير، وانتهاءً بمرحلة الاكتمال والكمال، التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ذلك أن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، وسيرة الرسول ﷺ في التعامل مع الواقع، قد استوعب، ومر بالحالات والمراحل كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضاً وسقوطاً، وحركة وركوداً، وامتلاك الحلول والإجابات الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها، وإلا كيف استحق أن يكون خالداً، وأن يكون محل الأسوة والاقتداء؟

لذلك فمن الأهمية بمكان - ونحن بسبيل معاودة النهوض - امتلاك القدرة على الوعي بالمنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، وإدراك مراحله بدقة، ومقاصده في كل مرحلة، ومرورته في التعامل مع الواقع، في ضوء تلك المقاصد، أمراً ونهياً، وحظراً وإباحةً، ورخصة، وعزيمة، بحسب الظروف

والاحوال، والاستطاعات، وتوفر الاسباب، ومن ثم القدرة على تحقيق خلوده، وذلك بتجريده من حدود وقيود الزمان والمكان، وتوليد الرؤى، والاحكام الشرعية، والحلول النبوية، للحالات، مع مراعاة الاعمار التي يمر بها المجتمع، وتنزيل هذه الحلول على الواقع، في ضوء ظروفه، وإمكاناته، وموقعه من مسيرة المجتمع الاول وسيرته، مع الاخذ بعين الاعتبار، أن اعتماد المرحلة والتدرج لا يعني يحال من الاحوال تجزيء المنهج، وتقطيعه، بمقدار ما يعني استصحاب المراحل كلها، التي مرفيها المجتمع القدوة، للوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، والإدراك الكامل لابعاد حركة النهوض الشاملة، ومستلزماتها، من خلال المرحلة والموقع، الذي يكون عليه المجتمع اليوم، لتجسيء هذه المرحلة في عمرها وموقعها ومكانها مستقبلاً، لبنة في البناء الكامل المأمول.

إن العودة إلى بعض مراحل السيرة، فيما قبل مرحلة الاكتمال والكمال، للمجتمع القدوة، ومحاولة الاستضاءة بها، لحل المشكلات المشابهة، من واقع المجتمع، واستطاعته، لا تعني هنا النكوص والتراجع، بمقدار ما تعني المراجعة للواقع، وظروفه، واستطاعته، ومحاولة تحضيره، والنهوض به، في ضوء الرؤية الشاملة، لمسيرة مجتمع القدوة...

وفي ظني: أن الذين يشيعون، ويدعون، أن أزمة الأمة المسلمة اليوم، أو أزمة العمل الإسلامي، هي أزمة منهج، هكذا بدون تحديد واضح للمصطلحات، وبيان ماهو المقصود بالمنهج، الذي نعاني من غيابه، أو أن غيابه هو سبب الأزمة، يساهمون أيضاً في الغيبوبة والالتباس.. إن هذا الادعاء، بهذه المجازفة والعمومية الشديدة، يحمل من المخاطر والبلايا والطوام، والتضليل الثقافي، والإلغاء للاتتماء، والانتهاى إلى الارتقاء، واستدعاء

« الآخر »، أو بشكل أصح استدعاء مناهج « الآخر »، ما لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالى، سواء صدر عن حسن نية من بعض البسطاء، الذين انتهت عقولهم إلى آذانهم، والذين يقفون مالمس لهم به علم - وما أعتقد أن مثل هذه القضايا الشائكة محلها البسطاء - أو من بعض المكفرة، الذين يحاولون التسلسل إلى الداخل الإسلامي، من خلال التدليس، والتلبس للمصطلحات، والثانيس والمقاربة لمصطلحات « الآخر »، والإيهام بأن القضية قضية إبداع فكري، ضمن القيم نفسها، لتمرير طروحاتهم، بينما الأمر في الحقيقة لا يخرج عن أن يكون بدعاً فكرية، غريبة عن مرجعية هذه الأمة، وبعيدة عن منهج وفهم الجيل الأول، المشهود له بالاهلية، ليكون هو وحده بفهمه ومسالكه محل الاقتداء.

وهنا قضية لا بد من تحرير القول فيها، ما أمكن، وهي أننا إذا كنا نريد بالمنهج، أنه بشكل عام هو : منهجية النظر والبحث، وعلوم الطريق الموصلة إلى الهدف، أو بتعبير آخر : أن المنهج هو طريق الوصول ، يصبح من الضروري أن نحدد، ماهي الاهداف، التي نريد الوصول إليها ابتداءً، ومن ثم، ماهي الوسائل والأدوات والمعارف المطلوبة، لتحقيق هذه الاهداف؟ مع ضرورة الانتباه إلى أهمية عدم المجافاة بين الوسائل المعتمدة، في مشروعاتها، والاهداف المرجوة .

فإن كان المنهج المقصود هو نظام مسيرة الحياة في هذه الدنيا، والاهداف هي سعادة الإنسان، وكرامته، وحياته الطيبة، في الدنيا والآخرة، وما يتطلب ذلك من الوسائل التربوية، والأوامر والنواهي، فإن أي ادعاء بأن الأزمة التي نعاني منها، أزمة منهج، يمكن أن يخرج عن الملة - والعياذ بالله تعالى - لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمَنْهَاجًا ﴿٤٨﴾ (المائدة: ٤٨) ، فالمقصود بالحكم بما أنزل الله ، المنهج الذي شرع الله التزامه .. والحكم الذي شرعه الله هنا ، لا يخص الجانب السياسي ، أو التشريعي ، أو الأخلاقي ، أو الاقتصادي ، أو التربوي ، وإنما يعني ذلك جميعه ، بكل ما يتطلب المنهج من منطلقات أساسية ، وأهداف مرحلية ، ونهائية واضحة ، ووسائل ، وأوامر ونواهٍ ، وقيم ومعايير ثابتة ، ليست من وضع الإنسان .. وما يتطلب أيضاً من أنموذج تطبيقي لهذا المنهج ، أشبه مايكون بوسيلة إيضاح مُعينة على تنزيل قيم المنهج على الواقع ، وتحويل فكره إلى فعل مجسّد في حياة الناس ، أو هو كالمجسمات والنماذج ، والصور ، التي تبين الشكل ، الذي لا بد أن تنتهي إليه الوسائل .

وهنا نقول : إن الازمة التي نعاني منها ، ليست ازمة منهج ، وإنما ازمة فهم للمنهج ، وأزمة تعامل مع المنهج .. ازمة تنزيل للمنهج على الواقع ، وتقويمه به .. فالإسلام بمصدره : الكتاب والسنة ، والسيرة كتنزيل عملي وأنموذج ، هو المنهج ، وأن المعايير للواقع ، والتحديد للخلل ، إنما يكون في ضوء الكتاب ، والسنة ، والسيرة ، وأن أي معاودة للنهوض ، واستئناف السير ، مرهون بتقويم الواقع ، بمنهج الكتاب ، والسنة ، والسيرة .. فالإسلام هو المنهج ، وهو الصراط ، وهو السبيل ، وهو الحجة ، وهو ميثاق الاستمساك والتلقي ، والمعايرة ، واكتشاف الخلل ، وتحديد الازمة ، أو هو بكلمة جامعة : الدين ، الذي يحكم تصرفات الإنسان ، أو يدين له الإنسان بتصرفاته ، ونشاطه ، لأن أي عدول عن هذا ، أو تعديل له - والتعديل هو عدول في الحقيقة ، عن بعض الجوانب ، كما أسلفنا - إنما يعني بالضرورة استدعاء مناهج ونظم معرفية ، ومسالك ومعايير « الآخرة » ، وليس من « آخر » الآن ، سوى المنهج الغربي ، بوسائله ، وأدواته ،

ونظامه المعرفي .

إن اعتماد المنهج الغربي، في النظر، والتحليل، والدراسة، سوف يؤدي بالضرورة أيضاً، إلى أن يصبح الإسلام، كتاباً، وسنة، وسيرة، هو مادة التحليل، ومحل وموضوع النظر، وليس منهج النظر، ومعيار التقويم .. ولا يغيب عنا هنا التذكير بالابجديات الخاطئة في قراءة الإسلام، من ماركسية، ورأسمالية، وعلمانية، وكل المقاربات التي تتم وتغلق الساحة الثقافية اليوم، حيث باتت، مصطلحات «الآخر» هي أدوات، ومحددات الفهم، والقسمات الفكرية، لأي باحث .. وهنا يبرز التناقض والضياع، وتزييف الوعي، أو التدليس، عن وعي.

وحتى لو سلمنا بحسن النية - وما نظن ذلك حاصلًا في هذه المواطن الخطيرة - فإن فصل الأدوات المنهجية عن نظامها المعرفي، ومرجعيتها الفكرية، ومضمونها القيمي، هو خلل منهجي، وتفتيت للنظرية، وتجزئتها، ومحاولة نقلها للتشغيل، والتعامل مع نسق آخر.

ذلك أن الأدوات المستخدمة، وعلوم طريق الوصول، والتبصير بما يمكن أن يتحصل من إصابات في الطريق، وكيفية الوقاية منها، هو جزء منبثق من المنطلقات، والقيم، والنظرة الكلية الشمولية للأهداف، وليست جزءاً منفصلاً محايداً، قائماً بذاته.

ونخشى أن نقول: إن الذين يدعون بأن الأزمة عندنا، هي أزمة منهج، متجاوزين في ذلك الصراط، والشرعة، والمنهاج، والسبيل، والدين، الذي أنتج هذه الحضارة، وتلك العلوم، سوف يقودهم سعيهم إلى تبني واحتضان المنهج الغربي، في النظر إلى القيم، والأفكار، والمجتمعات الإسلامية، وحتى

إلى عطاء الكتاب والسنة والسيرة، واعتبارها كسائر المواد التراثية الأخرى، حتى لو أعلنوا خلاف ذلك .

وهنا تحفظ لا بد من التوقف عنده قليلاً، وهو أن التراث عند من يعرفه بأنه اجتهاد، وكسب بشري، خارج دائرة الكتاب والسنة والسيرة، قد يغيب عنه، أنه أثناء فحصه واختباره، وتقويمه، ومحاكمته، لا بد من استخدام المنهج، الذي تم إنتاج هذا التراث في ضوءه، ومن ثم بيان فساد أو صواب التنزيل والتطبيق لهذا المنهج في الواقع، لأن من العقم المنهجي، والفساد الفكري، محاكمة واقع حضارة وتراثها، أو إنتاج حضارة، بأصول ومناهج وأدوات معرفية لحضارة أخرى مغايرة، في منهجها، وقيمها، ومنطلقاتها، وأهدافها، ووسائلها.

وقد يكون أحد الوجوه الخطيرة، للآزمة الفكرية، التي نعاني منها، بسبب عجزنا عن التعامل مع المنهج الذي شرعه الله، وبينته السنة، ونزلته، أو طبقته السيرة، هو الادعاء بضرورة الاختصار على النص القرآني، في التقويم، والمنهجية، والمرجعية، والمعايرة، والعدول عن السنة والسيرة، أو عن المنهج النبوي في البيان، والتطبيق، والتنزيل على الواقع، أو تجاوزهما عملياً، بحجة ظنية السنة، وضعف الرويات، من وجه، أو بأن التنزيل على الواقع في فترة السيرة، كان باجتهاد بشري، محكوم بظروف الزمان والمكان والحاجات، لا علاقة له بالنبوة والوحي، وأن الرسول النبي ﷺ الذي يبلغ رسالة ربه (القرآن)، ويبين كيفية عبادته، غير الرسول الحاكم (١١) فالمهمة الأولى هو مؤيد فيها بالوحي، ومسدد به، أما الثانية (السنة) فلا وحي فيها، وإنما هو اجتهاد جاء مناسباً لعصر معين، ليس بالضرورة، أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان، وأن إلغائه، أو تجاوزه، لاعلاقة له بالدين، أو التدين (١١) وهذه

بدعة في التفكير، خارجة عما أجمع عليه المسلمون في عصورهم المتطاولة،
ووسيلة مأكرة لعلمنة الإسلام، ومحاصرة المنهج القرآني، وإقصائه، بمحاولة
إلغاء سنة الرسول ﷺ، في التطبيق والبيان، لكنها اليوم باسم الإسلام، وهي
لا تقل خطراً واثراً عن الابتداع في العبادة.. إنها مروق من الدين، كما يمرق
السهم من الرقبة .

أما القول : بأن نص القرآن قطعي، وإلهي، ومطلق، والادعاء بأن نص
السنة في معظمه ظني، وبشري، ونسبي، يمكن رده.. فهو ادعاء ساقط،
قرآنياً، ومنهجياً، وواقعياً، وقد فند العلماء ذلك، ولم يبقوا فيه استزادة
لمستزيد، ذلك أن النص القرآني نفسه، يعتمد السنة، مصدراً للتشريع،
والمعرفة، والاحكام ابتداءً.

أما ظنية السنة، من الناحية المنهجية، فإن السنة محكومة بضوابط القرآن
الكريم، قطعي الثبوت، بحيث لا يجوز لها أن تخرج على نصوصه، أو تعارض
مقاصده، أو مرجعيته، حتى في البيان، الذي هو مهمتها، وذلك بنص القرآن،
إلى درجة اعتبر معها العلماء، أن من علامات الحديث الموضوع، معارضته
لصريح القرآن الكريم. فالسنة، على الرغم من ورود معظمها عن طريق خبر
الآحاد، إلا أنها موثقة بضوابط ومرجعية القرآن، قطعي الثبوت .

إضافة إلى أن هذه النصوص الظنية الدلالة، تجسدت، وتمثلت في واقع
أمة، كاملة، مشهود لها بالخيرية، في مرحلة السيرة، والخلافة الراشدة، الأمر
الذي يمنحها التواتر العملي، أو السكوتي - إن صح التعبير - وهذا لم يتوفر
لنص آخر، غير نصوص السنة، التي تضمنت المنهج النبوي، اللهم عدا النص
القرآني، الذي ثبت بالتواتر، الذي يفيد القطع، وعلم اليقين، وهذا التواتر من
حيث المنهجية العلمية، يمنح السنة السياج الواقعي، ويجعل الظنية فيها،

معتمدة في التشريع، والمعرفة، والأحكام، الأمر الذي لم يعان منه جيل الصحابة، حيث لم تكن هذه الإشكالية مطروحة أصلاً.

ولا بد أن نعترف أن بعضنا يعيش اليوم مرحلة الأرض الأجاذب، لكن بعضنا الآخر - مع الأسف - يعيش مرحلة الأرض القيعان، التي أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا، وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعمل.. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً...» (متفق عليه).. حيث تتقدم عندنا وسائل الحفظ والنقل لقيم الكتاب والسنة، لكن يصاحبنا العجز عن أن نستنبت منها الكلأ والعشب الكثير، إلى جانب حفظ الماء، فنكون من الطائفة الأولى. وقد يكون من المفيد هنا، أن نورد ما روي عن عثمان وعبد الله بن مسعود وأبي رضي الله عنهم، من أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر، فلا يتجاوزها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلموا العلم والعمل جميعاً (صحيح سنن أبي داود)، وما روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة، لا يحفظ من القرآن إلا سورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وأن آخر هذه الأمة، يقرأون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به (القرطبي ١/ ٤٠).

وحتى يكون الكلام واضحاً، لا بد أن نبين أن العجز المقصود هنا، هو عدم القدرة على الاستفادة من المنهج النبوي، في مجال التغيير والبناء الحضاري،

وليس المقصود مجال الفقه التشريعي، حيث خلف لنا العلماء والمجتهدون ثروة فقهية لا نظير لها، من الناحية القانونية، والثقافية، والتشريعية، والقضائية.

لذلك نقول: إن الأزمة الحقيقية التي نعاني منها، أو الأزمة الفكرية، هي أزمة فهم عملي، وأزمة تعامل، مع قيم الكتاب والسنة، وتحويلها إلى برامج، من خلال مسيرة السيرة النبوية.. أو بكلمة مختصرة: أزمة تعامل مع معرفة الروحي بشكل عام، أو استيعاب المنهج النبوي، في البناء والتغيير، سواء في ذلك من ينكرون وجود المنهج، في الكتاب والسنة ابتداءً، ويعتبرون أن الأزمة اليوم، أزمة منهج، أو من يسلمون بوجود المنهج، إلا أنهم عاجزون عن وضع مناهج فهم، وتعامل، من خلال القيم نفسها، ونسقتها المعرفي، وتراثها الممتد، الذي يشكل عقلها الجماعي، وشخصيتها الحضارية التاريخية.. لذلك نراهم يتناولون على التراث، ويحكموا عليه، من خلال تشكيلهم الثقافي، بعيداً عن القيم المعيارية، التي أنتجته، وإنما من خلال قيم حضارات، ومناهج معرفية، وعقائد أخرى، لذلك لا يخرج عملهم عن طحن الماء، على الرغم من الجهد المبذول، والمال المهدور، دون أن تكون عندهم القدرة على إيجاد البديل، أي بديل، وقد يضطربهم سعيهم في النهاية، بسبب فقر إنتاجهم - كما أسلفنا - إلى احتضان أشخاص، قد يفتقرون لأدنى حد من المرجعيات الشرعية، سواء في دراستهم الأكاديمية، أو كسبهم الثقافي، أو في مسالكهم، وإنما هم متخصصون، بالمنهج الغربي، ونظامه المعرفي، وأدواته البحثية، ويحاولون اليوم أن يجعلوا من الإسلام، والنصوص الإسلامية، في الكتاب والسنة، محلاً للتحليل، والدراسة، وفق المناهج، والأنظمة المعرفية، الخارجة عن نسقه، وقد يلحقون بأعمالهم أي شعار إسلامي، لتمريرها وتسويقها في عالم المسلمين.. إنهم يجراؤون على

الفتوى، في المعرفة، ويستدعون في الفكر، وقد لا يحسنون معرفة فرائض
الوضوء، وأحكام الحلال والحرام، التي يجب أن تعرف من الدين بالضرورة،
وقد لا يستطيع الكثير منهم أن يقيم لسانه بآية، أو حديث، وغاية عملهم
اقتطاع بعض النصوص الإسلامية، وإعمال أدوات المناهج الغربية في فهمها،
 وإعادة تفصيلها.. فكيف والحال هذه ستكون النواتج الفكرية والثقافية،
 خاصة إذا علمنا أن الأدوات المعرفية، ووسائل البحث، ومناهج الفهم
 والتفكير، ليست آليات محايدة، وإنما هي ثمرة لخلفيات عقائدية،
 ومرجعيات حضارية، لا تخرج عن أن تكون جزءاً منها ؟

إنها المرحلة الجديدة للاستلاب الحضاري، والاختراق الثقافي، التي يفترض
لها أن تكون أكثر قبولاً في عالم المسلمين، بعد أن سقطت الطروحات السابقة
للإسلام، المعنونة بالمصطلحات الغربية أو الشرقية، لإيجاد غطاء تراثي لتسللها
إلى الفكر الإسلامي.

ونخشى أن نقول: إن هذا المسمى اليوم يعتبر من أخطر البدع الفكرية
الخفية، التي يجب التنبيه لها، والتحصين منها، لأنها لا تقل خطراً عن البدع
في العبادات، التي نهض فقهاء السلف والأئباع، لمحاصرتها والتحصين منها،
 وهزيمتها بالسنة.

هذه البدع الفكرية، التي دخلت علينا باسم وضع الحلول لازماتنا
ومشكلاتنا، وحاولت اصطيدانا في حالة المعاناة، نرى أنها خلقت لنا تراكم
الازمات، بدل أن تضع الحلول.. وقد يكون المطلوب اليوم: أن تصبح
مواجهتها من الأولويات، وهزيمتها إنما تكون بوعي المنهج النبوي، والتحصين
بمعرفة الوحي، في الكتاب والسنة، والاجتهاد في إبداع الأدوات المعرفية،
 في إطار النسق الإسلامي، وتصوراتنا عن الحياة، ومرجعياته الشرعية.

وقد تكون الإشكالية الحقيقية، في النظر للمنهج النبوي، في التغيير والبناء الحضاري، تكمن في استيعاب مسيرة هذا المنهج، بمراحله المختلفة، ومحطاته الكبرى، والإفادة منه في تحديد وفهم الواقع، ووضعه في الموقع المناسب من هذه المسيرة، وامتلاك الفقه والقدرة، في كل مرحلة، على ضبط النسب، وإعادة ترتيب الأولويات، في ضوء الحال، وتطور المراحل، واستصحاب المقاصد، الأمر الذي يتطلب هضم الجزئيات في شعب المعرفة المختلفة، وإعادة تجنيسها، كمعطيات للمنهج النبوي المعرفي، في كل مرحلة.

نعود إلى القول: بأن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، إذا لم يُدرك بمراحله وأبعاده، ويميّز بين ثوابته، ومتغيراته، ومراحله، وتذكر الظروف والشروط، التي توفرت لكل مرحلة، يمكن أن ينقلب إلى معوق، بسبب سوء الفهم، ومن ثم سوء التطبيق، بدل أن يكون دافعاً للنهوض.. لذلك فالأمر لايجوز أن يبقى خاضعاً لرؤية فردية، تدّعي الإحاطة بكل شعب المعرفة، وإنما لابد له من دراسات متخصصة، بشعب المعرفة المتنوعة، شريطة أن تكون متحصنة بالمرجعية الشرعية الكافية، للتمييز بين ماهو من الوسائل، وماهو من الأهداف، وماهو من المبادئ، وماهو من البرامج، وماهو من القيم المعيارية، وماهو من الاجتهاد الخاضع للتقويم، لتشكيل رؤية جماعية لكل عصر، بحسب مشكلاته وظروفه، وإمكاناته، وقضاياه، وموقعه من مسيرة النبوة.

وقد يكون الكثير من مشكلاتنا الفكرية والمنهجية والنهوضية - إن صح التعبير - نابعاً من وجود متخصصين بشعب المعرفة، لكنهم يفتقدون المرجعية الشرعية، أو يفتقدون لمعرفة الروحي بشكل أعم، سواءاً منهم من تخصصوا في الغرب، أو من تخرجوا على أيديهم في مدارس ومعاهد وجامعات العالم الإسلامي، المرتبهة للنظام المعرفي الغربي في المرجع، والمنهج، والكتاب،

والمدرس، أو من هم من المتحمسين للقضية الإسلامية، بعيداً عن أي معرفة أو تخصص.

والمجتمع الإسلامي الأول، هو مجتمع النموذج، ومعيار الاقتداء العملي، ليس في مرحلة الكمال والاكتمال فقط، وإنما في المراحل كلها التي مر بها، فكل مرحلة تعتبر قدوة ونموذجاً لما يشابهها ويقابلها من الأحوال التي يعيشها ويتقلب فيها المجتمع المسلم.. فالمجتمع الأول بالنسبة للمسلم، يشكل المرجعية التطبيقية.. كما أن القيم في الكتاب والسنة، تشكل المرجعية الشرعية والفكرية، وقد تحقق له ذلك دون غيره، بسبب حراسة الوحي، والرؤية الراشدية، بعد توقف الوحي، المشهود لها من الموحى إليه ﷺ، الذي اعتمدها في المرجعية والاقتداء فقال: «... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ» (رواه أحمد).

وهنا قضية لا بد من الإشارة إليها في الحقيقة: وهي أن المجتمع الأول، مجتمع القدوة، والمثال، والنموذج، والمرجعية، ليس هو نهاية المطاف للحياة الإسلامية، إنما هو نهاية المطاف للبناء النموذجي، إذ أن المجتمعات الإسلامية، الممتدة تاريخياً، كما هو الواقع، والتاريخ، والسنن الاجتماعية، سوف تمر بسقوط، ونهوض، وقوة، وضعف، ومرض، وصحة، بحسب أقدار التدوين المتفاوتة، فهي ليست نسخة مكررة عن المجتمع الأول، مهما حاولت المقاربة والتأسي، ولكنها لا تخرج في كل حالاتها، التي تمر بها، عن المشابهة، مع مجتمع القدوة، في المراحل التي مر بها.

وقد يكون من المفيد التأكيد هنا، أننا مهما حاولنا الاقتراب من مجتمع القدوة، تبقى لمجتمع القدوة الذي ربي على عين النبوة، خصوصية في كونه قدوة دون سائر الحالات المماثلة الممتدة على طول التاريخ الإسلامي، فهي

تجارب تفيد العبرة، ولا يمكن ان تتحول إلى نموذج أو مصدر للتشريع والتلقي.

والفقه المطلوب اليوم : كيف يشكل المنهج النبوي ، والرؤية الراشدية - قيماً وبرامج، فكراً وفعلًا - بمراحلها المتنوعة، مرجعية، وقدوة للمجتمعات الإسلامية ، ضمن الحالات التي تمر بها؟ وكيف يمكن أن يتحقق الاقتداء والإفادة، من المنهج؟ هذه هي القضية المطلوبة بشدة، الغائبة غياباً مذهباً .

ونحن عندما ندعو لاستيعاب المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، واستيعاب الواقع، ومن ثم وضع الواقع في مرحلته المناسبة من مسيرة النبوة، أو من المنهج النبوي، حتى نحقق الاقتداء في عملية التغيير، وكيفية التعامل مع الواقع، وتغييره، والارتقاء به، أو تقويمه بمنهج النبوة، في ضوء عطاء المنهج نفسه، أو عطاء المرحلة المشابهة لواقع الحال، لا نعني بذلك عملية التقطيع، والانتقاء الفقهي، كما أننا لا نعني إيجاد المسوغات الشرعية، أو التستر على هذا الواقع بفقهِ حيل، أو فقهِ مخارج، وإنما الذي نريد أن نوضحه : أن القضية قضية اجتهاد فكري، أو رؤية منهجية في كيفية إعادة البناء، في ضوء المنهج النبوي، ترتكز إلى فقهِ المقاصد، الذي كان محاور التغيير في كل مرحلة، ومرتكز ومنطلق آلياته، ووسائله.. لذلك جاء تأكيدنا باستمرار، ومهما كانت مواصفات وشروط المرحلة، على ضرورة استصحاب الرؤية الشاملة.

واعتقد أن الجهود، التي بذلت لحماية السنة، والسيرة وحفظها، ومناهج وضوابط الحفظ، والنقل الثقافي، ومعايير الجرح، والتعديل، لم تتوفر بعد القرآن الكريم، لأي نص تاريخي، أو وثائقي، أو ديني على الإطلاق، ولعل هذا من لوازم وخصائص الخلود.. إن هذه الجهود العلمية العظيمة التي توفرت لحماية بيان القرآن، وكيفيات التعامل معه، فهماً وتنزيلاً على الواقع،

والتي تحققت من خلال عزمات البشر، الذين يمثلون أوعية الحفظ وأدواته، جاءت مصداقاً لقوله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصتْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ (القيامة : ١٧-١٩) .

والحقيقة التي قد يكون ذكرها هنا من الأهمية بمكان، أنه أثناء التعامل مع المنهج النبوي، لابد من استصحاب الرؤية الشاملة للمنهج، حتى ولو كان التنزيل، والتطبيق لبعضه، بحسب النوازل، وظروف الحال، والاستطاعات، التي تقتضي التركيز على بعض الجوانب في مرحلة معينة، لمعالجة الخلل، دون الجوانب الأخرى .

ذلك أن غياب الرؤية الشاملة للمنهج النبوي، وعدم فقه مقاصد التعامل مع الحالات المتنوعة، من الواقع، وأسباب التركيز عليها، أدى ببعض المفكرين إلى اختلال في شمولية الرؤية، وضبط النسب، وبروز فرق خارجة، ونشوءات فكرية، لا تتفق مع توازن وشمولية المنهج النبوي .. أخذت بعض الجزئيات وضخمتها، وحاولت الرباطة من ورائها، وتعميمها على المنهج كله، فاضطربت الأولويات، واهتزت النسب، وظهرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي، لا المنهجي، وأصبحت القواعد والأصول المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، هي المعيار لتفسير النص والتحكم بمقاصده، وهو ما لم يعرفه تنزيل الإسلام الأموزجي في خير القرون .

ولا شك عندي أن عملية التنزيل للمنهج النبوي على الواقع، أو الفقه التطبيقي، وتحويل القيم والمبادئ، إلى برامج، إذا لم تترافق بالرؤية الشاملة، والضوابط الصارمة، واليقظة المستمرة، قد يؤدي إلى لون من التكيف مع الواقع، دون القدرة على تكييفه، وفق القيم، بسبب الإلف له، والقبول به، نتيجة للتوارث الاجتماعي، ومن ثم الدفاع عنه، واعتماده كمقياس

للمعايرة .. أو بتعبير آخر: نتيجة لإلف الواقع وحالة الركود، التي يفرضها، وسهولة التعامل معه، يصبح تقليداً يصعب تغييره، ومن ثم يعتمد هذا التقليد، أو هذه التقاليد، لتصبح قيماً، ومعايير، تحل محل المنهج، والقيم، والتعاليم .. وبدل أن تُقَوِّم التقاليد بالقيم، والتعاليم، وتكون التقاليد هي مادة البحث، والتحليل، تصبح هي معايير البحث، والتحليل، فيصاب المجتمع بالركود والاستنقاع الحضاري، ويصل إلى مرحلة ذهاب العلم، وإن بقيت مصادره التي أخبر عنها الرسول ﷺ .. فعن الإمام أحمد رحمه الله، قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: «وذاك عند ذهاب العلم» .. قلنا: يا رسول الله، كيف يذهب العلم، ونحن قرأنا القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبنائنا يقرئونه أبناءهم؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفاقه رجل في المدينة، أو ليست هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل، ولا يتفقهون لما فيها بشيء؟» ١٩٤ (الحديث رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه في سننه، باب ما جاء في ذهاب العلم، وقال: هذا حديث حسن غريب).

لذلك، وحتى يحول المنهج النبوي في التغيير والبناء الحضاري، دون هذا التوطين للتقاليد، بسبب التوارث الاجتماعي - كما أسلفنا - شرع الدورات التجديدية، التي اعتمدها كحراسات لسلامة المنهج واستمراره، والتي تعني بعث الحياة للتعاليم والقيم من جديد، وإعادة تصويب المعادلة الاجتماعية.

فالتجديد هو العودة إلى ينباع الأولى، وإعادة التقويم بها، وبذلك يتحقق الحفظ والاستمرار، وديمومة العطاء، للمنهج النبوي، أو لمعرفة الوحي، بشكل أعم، ليصبح منهج النبوة، أو معرفة الوحي بشكل أعم، هي الإطار المرجعي، والضابط المنهجي، والمعياري للمراجعة المستمرة، وإعادة تقويم الواقع، قبل أن

ينغلق على تقاليد، التي يكرسها التوارث الاجتماعي، لذلك قال الرسول ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة، من يجدد لها دينها» (رواه أبو داود في الملاحم).

لقد جعل التجديد تكليفاً، ولم يقتصر على أن يكون إخباراً.. والتجديد – الذي هو في الحقيقة تقويم للواقع، وتغيير له، ومحاولة للعودة به إلى النابيع الأولى، بعد إدراك هذا الواقع في ضوء المنهج النبوي للتغيير، أو بكلمة مختصرة: هو النظر في الواقع، وتقويمه من خلال المنهج النبوي، والنظر إلى المنهج النبوي، وكيفيات التزامه، والإفادة منه، من خلال الواقع – هو لازم من لوازم الخاتمية، حيث توقف التصويب من السماء، فلا بد من ممارسة عمليات التصويب والتقويم للواقع، في ضوء مرجعية قيم السماء وبيانها النبوي.

ولعلي أرى أن في تسمية منهج الرسول ﷺ في التغيير والبناء الحضاري، بمصطلح السنة، بعض ملامح الخلود، والتجرد عن ملابسات الزمان والمكان، ذلك أن السنة هي: القانون المطرد الممتد، الذي لا يقبل التحويل، ولا التبديل. فهي في مجال النفس كالقانون الطبيعي الكوني، في اطراده وثباته، في مجال الآفاق، وإن كان محل الاستشهاد على ثبات السن واطرادها، غالباً ما ينصرف إلى السن الكونية الآفاقية، لسهولة إدراكها، ووقوعها تحت الحواس، وفي تناولها، ولأن الزمن المطلوب لاستيعاب اطرداها، وإدراك نتائجها، هو في مقدور الإنسان، وضمن عمره المفترض، أما السن النفسية والاجتماعية، والتعرف على عواقبها، فأمر بطيء ومديد، إلى درجة قد يكون عمر جيل كله، مقدمة لها، إضافة إلى أنه قد تحول بعض العوائق، أو تغيب بعض الشروط، فتختل النتائج أو تتخلف، فيتوهم الإنسان عدم الاطراد،

لذلك غالباً ما يتحدئ القرآن في مجال السنن النفسية والاجتماعية ،
بالعواقب ، التي هي أكد من النتائج عملياً .

فإذا سلمنا، بأن السنة النبوية، هي قانون مطرد في التغيير الاجتماعي،
والبناء الحضاري، وأن الاطراد سمة لازمة لها، كلما توفرت الظروف
والشروط، وانتفت العوائق، وأن نهوض المجتمع الإسلامي من سقوطه اليوم،
مرهون باستعادة النموذج، القدوة، والمنهج في التغيير، وأن توفير الظروف
والشروط التي توفرت لميلاد المجتمع الاول ، أساس لمعاودة الإنتاج، أدركنا
مغزى قولة الإمام مالك رحمه الله : لا يصلح آخر هذه الامة، إلا بما صلح
به أولها .

ولعل من الامور الاساسية التي لا بد من التنبه لها، والتذكير بها هنا، أن
منهج الرسول القدوة ﷺ في البناء والتغيير الحضاري، هو منهج اللبنة
والتدرج، وتحضير المحل، والاخذ بيد الناس إلى تحقيق المقاصد الإسلامية،
وتقويم سلوكهم بشرع الله، شيئاً فشيئاً، حتى وصل بهم، إلى درجة الاكمال
والكمال، في بناء المجتمع النموذج . وهذا المنهج لم يقتصر على مرحلة النبوة
الخاتمة، وإنما هو منهج النبوة في التاريخ الإنساني، ووسيلة الانبياء جميعاً،
حتى إن النبوة الخاتمة بكل عطائها، ومقوماتها، وأهدافها ومنطلقاتها، لم
تخرج عن أن تكون لبنة، في البناء النبوي الممتد، مع رحلة الإنسان على
الارض، وقد ألمح إلى هذا وأكدّه الرسول ﷺ بقوله: «مَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ
مَنْ قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ
زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا
وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ ؟ قَالَ : فَأَنَا اللَّبْنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» (رواه مسلم) .

حتى إننا لنجد في القرآن الكريم، الذي يمثل اللبنة الأخيرة، أو المنهج

الآخر للنبوة، الذي انتهت إليه النبوات، مساحة كبيرة، لدعوة الانبياء، وقصصهم مع أقوامهم، وكيفيات تعاملهم مع المجتمعات، وخلاصة التجارب التاريخية، التي صدقها الروحي، وتحققت من خلال سنن الحياة الاجتماعية والنفسية، والتي تشكل رصيذاً في بناء مرحلة النبوة الخاتمة .

لذلك بالإمكان القول: إن الصورة الأخيرة التي انتهت إليها النبوة، لاتخص فترة النبوة الخاتمة، ولا تقتصر عليها من الناحية الزمانية، والمكانية، والحضارية، والثقافية، وإنما هي في الحقيقة ثمرة النبوة التاريخية، بكل بنائها وعطائها، وإن النبوة الخاتمة، هي لبنة في هذا البناء المتكامل الكامل، لذلك فقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩) إنما يعني من الوجوه كلها، أن الإسلام هو العنوان، والسمة، والتعريف، لهذا البناء النبوي التاريخي الكامل المتكامل، وإن انتهت تسميته إلى النبوة الخاتمة، وأصبح علماً عليها.

لذلك فالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، هو ملة إبراهيم، ودين موسى، وعيسى، والأنبياء من قبل، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (الشورى: ١٣) .. وأن أي صدق مع منهج النبوة التاريخي، يقتضي الإيمان به، وأن الدعوة إلى الإبراهيمية، ووحدة الأديان، خارج نطاق الإسلام، الذي حقق وحدة الأديان - إضافة إلى أنها تشويه للتكامل والكمال، وحفريات تاريخية لا طائل من ورائها، إلا المزيد من التضليل - هي نكوص، وانتكاس، وتراجع على طريق دارسة.

وكذلك نرى أن اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿ (المائدة: ٣) ،
 إنما كان ذلك الاصطلاح دليلاً على اكتمال البناء، الذي تعتبر النبوة الخاتمة،
 تسديداً وتصويماً لنقصه، حتى بلغ الكمال.. فالخطاب من كل الوجوه،
 خطاب للبشرية جميعاً، ولابناء الاديان السابقة، التي انتهت نبواتهم إلى
 الصورة الاخيرة، إلى الإسلام الشامل، ذي العمق، والبعد التاريخي، والبعد
 المستقبلي معاً.. فالإسلام الذي نزل على محمد ﷺ ليس مقطوعاً عن
 الماضي، ولا مبتوراً من سياقه، وإنما استوعب الماضي، في بناء الحاضر، قال
 تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨)
 كما أحسن بناء الحاضر، وكماله، في ضوء عطاء النبوة التاريخي، ليصبح
 الإسلام بناء المستقبل الخالد، ومنهجه الدائم، الذي اكتمل، وكمل علي يدي
 محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وأصبح في مامن من النقص
 والانهدام، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
 وَاخْشَوْنِي﴾ (المائدة: ٣) .

والذي نراه هنا أن منهج اللبنة ليس مقتصرًا على بناء النموذج، وإنما هو
 منهج كل بناء، أو إعادة بناء.. وكل لبنة من هذه اللبنات، تشكل مرحلة
 للاقتداء بما يمثّلها، شريطة استصحاب صورة البناء الكامل، التي لا بد أن
 تشكل اللبنة مرحلة لانتهاه إليها.

وقضية أخرى، في إطار منهج اللبنة، يمكن أن نلمحها في سنة
 الرسول ﷺ، وطريقته في التغيير والبناء الحضاري، وهي أنه بالرغم من الرصيد
 التاريخي لدعوة الأنبياء مع أقوامهم، والخلاصات التي انتهت إلى النبوة
 الخاتمة، وساهمت في بنائها وعطائها، فإن دعوة الرسول ﷺ ومنهجه في
 التغيير والبناء، استغرق ثلاثة وعشرين عاماً، أي استغرق الزمن المطلوب لبناء

جيل كامل، على رأي علماء الاجتماع، بدءاً من قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ ﴾ - ولا نقصد بالقراءة هنا : تعلم الأبجدية فقط، وهي مقصودة بلا شك، كمفتاح للعلم، وطريق للدين الجديد الخاتم، ووسيلة للتغيير والبناء الحضاري، وإنما نقصد القراءة بأبجدية إسلامية، ذات منهجية خاصة بها.. فليس كل قارئ بالأبجدية، قادراً عليها، إذا افتقد الإيمان الذي يعتبر المؤشر الصحيح لتوجيه أبجدية الإنسان، وربطها بغاياتها.. إنها القراءة باسم الله الخالق، القراءة باسم الرب الأكرم.. إنها قراءة جديدة متميزة، عن كل القراءات القائمة، والأبجديات المعروفة - وانتهاءً، بالوصول إلى مرحلة الاكتمال والكمال، التي أوصلت البناء إلى غايته، والقراءة إلى هدفها، بقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

ومن الأمور الأساسية التي قد يكون من المفيد التوقف عندها قليلاً، ونحن نحاول، تحديد بعض الملامح، لمنهج النبوة القائمة، في التغيير والبناء الحضاري : قضية بشرية الرسول ﷺ وخضوعه في حمله، وولادته، ورضاعه، وشبابه، وهرمه، ومرضه، ووفاته عليه الصلاة والسلام، للسنن الفطرية، والقوانين الطبيعية، التي يخضع لها سائر البشر.. فلقد كان حمله طبيعياً، استغرق مدة الحمل نفسها، كما كانت ولادته طبيعية، كسائر الولادات، وعانى من فقد الأم والأب، ككثير من البشر، وخضع لكفالة الأقارب، وبلغ سن الشباب، وعمل في الأعمال، التي كان يمارسها قومه، كالرعي، والتجارة، وتزوج، وأنجب، وفقد الابن، والبنت، والصديق، والزوجة، وتعرض للأذى والمرض، والنصر، والهزيمة، وحل به من جراحات الحرب، ما يمكن أن يحل بكل إنسان، وأعلن أكثر من مرة : أنه بشر من البشر، وأن النبوة لم تخرجه عن بشريته، وإنما

امتاز عن البشر بالوحي، والعصمة، حتى يتأهل ليكون قدوة للبشر، ويربى على عين الوحي، قال تعالى على لسان نبيه مقررًا حقيقة البشرية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠).

ولعل من الأمور الجديرة بالنظر هنا، أن سيرة الرسول ﷺ التي كانت تنزيلاً لقيم القرآن، وتجسيداً لها في الواقع البشري، تمثل منهجاً لكيفية التعامل مع القيم، وتطبيقها في المواقع، والأصعدة المختلفة، بمعنى أن القدوة، وتقديم النماذج للاقتداء، لم يقتصر على الحاضر، وإنما استوعب أبعاد الزمن الثلاثة: الماضي، بما عرض من قصص الأنبياء كنماذج، والمستقبل أيضاً في إِبصار بعض ملامحه الرئيسية، والإخبار عن كيفيات التعامل معه، والواقع الذي يعيشه الناس، وتقويمه بشرع الله.

لذلك نقول: بأن القدوة هنا، في الرسالة الخاتمة، جاءت شاملة شمول الإسلام نفسه، ولئن كان الأنبياء السابقون، يمثلون نماذج للاقتداء في مجالات معينة، فإن النبوة الخاتمة، قدمت القدوة والآنموذج المحتذى في مجال الدعوة، ومنهجها، وكل وسائلها، ومتطلباتها، وفي مجال الدولة، وكل ممارساتها، ووظيفتها، وأعبائها، وعلاقاتها، وسلمها وحربها.

والحقيقة التي يمكن أن نلمحها هنا، والتي قد يكون من بعض مدلولاتها أهمية تقديم الآنموذج والقدوة، أن مساحة تعبيرية كبيرة من سور وآيات القرآن الكريم، وهي متواترة الورد، قطعية الثبوت، قد تضمنت عرضاً تفصيلياً لسيرة الرسول ﷺ، والأنبياء من قبله، حتى لا تبقى القيم والتعاليم الإلهية المنزلة، نظريات مجردة عن النماذج العملية، التي تجسد هذه الأفكار في أفعال، وإنما جاءت في معظم الأحوال، مقترنة بالآنموذج التطبيقي.. جاءت متلازمة، مع القدوة، التي تشكل منهج التعامل، وتحويل الفكر إلى فعل، والقيم إلى برامج،

لذلك بالإمكان القول: بأن المنهج، والأنموذج، والقصدوة، حُفِظَتْ بحفظ القرآن، لأنها لا تنقل، من حيث الدلالة العملية، عن آياته شأنًا في عملية البناء والتغيير، حتى إن بعض الباحثين المعاصرين - والاستاذ محمد عزة دروزة رحمه الله يأتي في مقدمتهم - كتبوا السيرة من القرآن مباشرة.

وقد يكون من أبرز الخصائص، التي تجعل المنهج النبوي في التغيير والنهوض والبناء الحضاري، محلاً للاقتداء والتأسي، وتجعله أنموذجاً، يحتذى، إنما هي في واقعته، وتوافقه مع فطرة الإنسان، وإنه تحقق من خلال تعامله مع السنن الجارية في الكون، ومن خلال عزمات الإنسان، بضعفه وقوته، وتذكره ونسيانه، وفطرته وغريزته، ونزوعه إلى الخير، وانحداره في الشر، واستيعاب جميع ما يتعرض له من الظروف، والأحوال، والقابليات، من الشدة والرخاء، والسقوط والنهوض، والهزيمة والنصر، ليكون المنهج من ثم دليلاً ومرشداً، في كيفية التعامل مع الأحوال كلها، من خلال الاستطاعات المتوفرة، والظروف المحيطة، ولم يتحقق من خلال تعامله مع السنن الخارقة، الخارجة عن طاقة البشر، التي قد تسهم بالتواكل، والإلقاء، وانطفاء الفاعلية، وتؤدي إلى السلبية، والإرجاء. واعتمد الزمن، وسنة الأجل، كعنصر لازم، لإنضاج الفعل الحضاري، وتحكم بالزمن تسخييراً وإنتاجاً، بعيداً عن النظرة الدهرية والجبرية الزمانية، التي كانت من مثالب الكفر، وليس من خصائص الإيمان. ونستطيع القول: إن المنهج النبوي في التغيير، والبناء الحضاري، تحكم بالزمن، وأعاد التعامل معه إلى المسار الحقيقي، وأكد استدارته كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأبطل عبث العابثين بمساره، ليتحقق الانسجام، بين السنن الكونية، والسنن النفسية والاجتماعية، فلقد قال الرسول ﷺ في مراحل الاكتمال والكمال للمنهج النبوي، في خطبة الوداع:

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض..... إلخ، حيث تحقق بالنبوة الخاتمة، التصويب لوجهة الإنسان، والقراءة الصحيحة، لحركة الكون، وغايات الحياة .

والناظر في منهج الرسول ﷺ يرى أنه لم يعان من الثنائية، بين هدايات الوحي، ومدرجات العقل.. بين التعامل مع السنن الجارية، بل واستفراغ الجهد في التعامل معها، إلى درجة، قد يظن معها الجاهلون بالمنهج النبوي أن الأمر كله موكول إليها، ومعتمد عليها، وبين الالتجاء إلى الله، والتوكل عليه، واستفراغ الوسع في الدعاء، والابتهاال، وانتظار المدد من السماء، لدرجة قد يظن معها الغافلون عن أبعاد المنهج النبوي ومقاصده، أن صاحبها لاعلاقة له بالتعامل مع السنن والأسباب .

كما أنه لم يعان من الثنائية بين القدر، والحرية، والإرادة الإنسانية، بل كان يعتبر أن الأسباب هي قدر من قدر الله، وأن الله الذي خلقها، وجعلها قدراً وسبباً لحصول النتائج، هو القادر على خرقها، وليست المعجزات في تعريفها المبسط إلا خرق للأسباب، وما اعتاده الناس، وأن من الفهم للمنهج النبوي، مدافعة سنة بسنة، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وأن إرادة الله هي التي أرادت للإنسان أن يريد ويفكر، لمغالبة قدر بقدر، وإلا، كيف يمكن عقلاً وشرعاً، ترتيب المسؤولية على الفعل، إن لم يأت ثمرة للإرادة والحرية ؟ وكيف يمكن أن يتحقق العدل المطلق ، الذي لا يليق غيره بالله سبحانه وتعالى ؟

كما أن منهج الرسول ﷺ، في التغيير والبناء الحضاري، الذي اكتسب خلوده من خلود القرآن، تجاوز حدود وقيود الزمان والمكان، ليكون قادراً على العطاء العالمي في كل عصر ومكان، ويكون قادراً على الاستجابة،

والاستيعاب، لمشكلات كل عصر، وتقديم الحلول المناسبة لها، ولذلك نراه استغرق في التغيير والبناء، مسيرة جيل كامل، واستوعب مراحل التغيير والبناء في كل ما يعرض لها من الأحوال، ابتداءً من حالات الاستضعاف، وحتى التمكين والوصول لحالات الكمال.

لذلك كان منهج المقاصد، والغايات، والأهداف، والاستطاعات.. لم يكن جامداً على حالة واحدة، من حالات الفرد، والمجتمع، والامة، والدولة، والاستطاعة.. ولم يضع قوالب يابسة، ليصب الناس فيها بكل أحوالهم وحالاتهم، وإنما كان يتغير بحسب الرؤية المتوفرة، والمصلحة المتحصلة، والهدف المطلوب.. يتغير بحسب الظروف والإمكانات، ليستحق أن يشكل القدوة للإنسان، في كل ما يعرض له، حتى على مستوى الدعوة والفكر.. كان للحرب خطابه ووسائله، وكان للعهد والسلم شروطه، وضوابطه، وكان للنصر فقهه، وللهزيمة فقهها، وكيفيات التعامل معها.

وكان الرسول ﷺ يحرم بعض الأعمال، في عام، ويبيحها في عام آخر، فعندما أصاب الامة من المجاعات، نهى عن ادخار لحوم الأضاحي، وعلل ذلك بالدأفة، أي بسبب زيادة الفقر، وقدوم الفقراء على المدينة، للشدة والمجاعة التي يعانون منها، فإذا انتهت المجاعة، أعاد الأمر للإباحة فقال: «ألا فكلوا وادخروا».

كما أنه حرم الادخار، والفضل، من المال، والظهر، والزاد، في حالات الشدة وضرورات التكافل الاجتماعي، أو ما يسمى اليوم باقتصاد الحرب، وأباح الادخار في حالات الرخاء.. يروي أبو سعيد الخدري فيقول: قال رسول الله ﷺ: «من كان له فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن

كان له فضل زاد ، فليعد به على من لازاد له ، ، فذكر من اصناف المال ما ذكره، حتى رأينا، انه لاحق لاحد منا في فضل (رواه مسلم) .

هكذا ، في بعض الظروف، يحرم المنهج النبوي، في الجانب الاقتصادي والاجتماعي، الادخار، ويعتبر الزائد عن الحاجة حراماً في حالات خاصة، الامر الذي لم تعرفه اشد المذاهب تطرفاً .

والتأمل لمنهج الرسول القدوة ، ﷺ ، في تعامله مع استطاعة المكلف، وفقهه لحالته، وتقرير الاحكام الشرعية، في ضوء إدراك مقاصدها، يرى كثيراً منا اليوم، هم حملة للفقهاء وليسوا فقهاء حقاً .

ولعل في قصة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، التي كانت سبب نزول قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ (المجادلة: ٢) ، وتطور الحكم في ضوء الاستطاعة، ما يلقي أضواء كاشفة على ما نريد .. قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى:

« حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سليمان بن يسار ، عن سلمة بن صخر الأنصاري، قال: كنت امرأة قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، خوفاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فاتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت، غدوت على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري، فقالوا: لا والله لا نفعل، نتخوف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع

ما بدا لك . قلت : فخرجت حتى أتيتُ النبي ﷺ فاخبرته خبري ، فقال لي :
« أنت بذلك » ؟ فقلت : أنا بذلك . فقال : « أنت بذلك » ؟ فقلت : أنا بذلك .
قال : « أنت بذلك » ؟ قلت : نعم . ها أنا ذا فامض في حكم الله عز وجل ، فإنني
صابر له ، قال : « أعتق رقبة » ، قال : فضربت صفحة رقبتني بيدي ،
وقلت : لا والذي بعثك بالحق ، ما أصبحت أملك غيرها . قال : « فصم
شهرين متتابعين » . قلت : يا رسول الله ، وهل أصابني ما أصابني إلا في
الصيام ؟ قال : « فتصدق » ، فقلت : والذي بعثك بالحق ، لقد بتنا ليلتنا هذه
وحشني ، ما لنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بني زريق فقل له
فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها ، وسقا من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن
بسائرهم عليك وعلى عيالك » ، قال : فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت
عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة ، والبركة ،
قد أمر لي بصدقتكم فادفعوها إليّ ، فدفعوها إليّ ، وهكذا رواه أبو داود ، وابن
ماجه ، واختصره الترمذي ، وحسنه . (تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، المجلد
الرابع ، ص ٣١٩ ، ط دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٦٩ م) .

ويبقى المطروح باستمرار : كيف ندرك مقاصد المنهج في كل مرحلة ؟
وكيف نتعامل مع هذا المنهج من خلال العصر ؟ وكيف نتعامل مع العصر
ونقوم حركته ومسالكه ، من خلال المنهج ؟

وبعد :

فلا شك أن الكتابة في المنهج ، ليس بالأمر السهل ، وأنه اليوم بحاجة إلى
جهود جماعية ، وتخصصات متنوعة ، في شعب المعرفة المختلفة ، لتحقيق أمرين
لا بد منهما في كل مشروع للنهوض ، واستعادة العافية .

أولهما : فقه المنهج النبوي، بعد التأكد من ثبوته، من حيث النقل والحفظ، لأنها المرحلة الأولى والأساس الذي يقوم عليه البناء .

والثاني : هو فقه التعامل مع المنهج ، تطبيقاً على الواقع، الأمر الذي يقتضي فقه الواقع الإقليمي، والعالمي، والإنساني، واستطاعته .

ولا نزعم للكتاب الذي نقدمه اليوم ، أنه استطاع أن يقدم المأمول، أو أن يحسم بعض الإشكاليات المنهجية، التي يعيشها العقل المسلم، ليحقق النقلة النوعية المطلوبة، من الحفظ، والنقل، والتوصيف، والتحليل، إلى التعليل وامتلاك القدرة على تعدية الرؤية، والتنزيل على الواقع البشري المازوم، بغياب منهج النبوة .

وحسبنا في هذا الكتاب، أننا طرحنا قضية المنهج النبوي، من وجهة نظر أخرى، ما تزال الدراسات فيها ضئيلة ، لأن معظم الدراسات، تركزت حول منهج الحفظ والنقل، واستنباط الحكم التشريعي، أما أن يكون المنهج النبوي مصدراً للمعرفة بشكل عام ، ومنهجاً للتغيير والبناء الحضاري، فلا تزال الحاجة إليه قائمة وماسة .

ونعتبر أن غاية ما قدمه الكتاب ، أنه طرح القضية للمناقشة، وفتح ملفها، وقدم محاولة، قد تكون، نجحت في بعض سعيها، وتعثرت في بعض الآخر، حيث يعوزها الاستدلال والتوثيق، لتحقيق البعد المطلوب، وهي محاولة لا تخرج عن سائر المحاولات، والاجتهادات البشرية، التي يجري عليها الخطأ والصواب، ويؤخذ منها ويرد . . ويبقى المطلوب اليوم بشدة، تضافر الجهود لإعادة استيعاب المنهج النبوي، الذي يشكل المعيارية ، لما يؤخذ وما يرد، والله من وراء القصد .

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
محمد ﷺ .. وعلى آله وصحبه وتابعيه بإحسان إلى يوم الدين .. وبعد ..

فلقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ، وكرمه بفضله ، وأمدّه من علمه ،
وجعل له عقلاً ، وسمعاً ، وبصراً ، وفؤاداً ، وسخر له الأرض ذلولاً ، والكون
خدوماً ، وهبه قوى التعقل ، والتدبر ، والنظر ، وأعطاه حياة ووقتاً . ثم كلفه
برسالة الاستخلاف في الأرض . ولكن الإنسان وهو يتفاعل مع الحياة
ومشكلاتها ، والكون وأسراره ، والتاريخ وسننه ، بحاجة إلى مرشد يبصره
بطريق الحق ، ونور يدهله على معالم الطريق ، إذ العقل البشري لا يقوى وحده
على إدراك سنن الخير ، وسنن الشر ، ولا يقدر بوعيه المحدود على فهم خبايا
الكون ، والحياة ، والتاريخ ، والوجود ، ولهذا فقد وهبه الله خيراً آخر ، وفضلاً
عظيماً من أفضاله ذلك هو « علم النبوة » الذي انبثقت عنه مناهج الهداية التي
حملها الوحي الأعلى إلى الأمم والشعوب كافة ، عن طريق الأنبياء ، والرسل
صلوات الله عليهم أجمعين . إذن قد أمد الله سبحانه وتعالى الإنسان بمنهاج
قويم ، ومسلك أمين ، يدهله على سبيل الفوز المبين . ثم شاءت إرادة المولى
تبارك وتعالى ، أن يختم علم النبوة بالرسالة المحمدية التي أعطت للاستخلاف
مضموناً عالمياً شمولياً ، وبعداً دعوياً إنسانياً هادياً .

وفي الحركة الإسلامية الخاتمة ، تمكن نبي الإسلام ﷺ من بناء حضارة
توحيدية سامقة ، واستطاع أن يقدم للبشرية جمعاء ، نموذجاً فطرياً لتغيير
حضاري إنساني ، كوّن به إنساناً استخلاقياً ، وثقافة إنسانية ، ومجتمعاً

منسجماً، وتاريخاً عالمياً، وحضارة متوازنة. والنبى ﷺ وهو يواجه ظروف بناء الحضارة الإسلامية، كان منضبطاً بمنهج تغييرى، يستمد وجوده، ووعيه، وأصوله من معيار الوحي الإلهى.

ولما كان أى بناء حضارى إنسانى، مفتقر فى حدوثه إلى منهج تغييرى يقوده نحو غاياته، ومقاصده، بخطوات منظمة وسليمة، فقد استدعت العملية التغييرية النبوية وجود ذلك المنهج. والمنهج النبوى فى البناء الاجتماعى، منهج فطرى متوافق مع سنن الله فى الخلق، ومنسجم مع قوانين الدعوات الإنسانية.

من هذه الأهمية العظيمة للمنهج النبوى، وقدرته على تركيب حضارة عالمية نموذجية، تستجيب لقانون الفطرة العالمى، برزت الضرورة الملحة لدراسته من وجهة نظر «حضارية سُنّية»، تنفذ إلى محاولة وعى المنهج النبوى، بغرض استدعائه، ليساهم بقدرته الفائقة فى حل معضلات الإنسان المعاصر وهو يستقبل عصر العالمية.

ففى هذا الجهد المتواضع جداً، حاولت أن أنبه إلى أهمية المنهج النبوى فى البناء الحضارى الجديد، وذلك لما للوعى بهذا المنهج، من فقه بصير، وإدراك عميق، وفهم سديد لسنن الدعوات، وقوانين النهضة، ومناهج البلاغات، ومقاصد الديانات، وأخلاق السياسات، وحاجات النفسيات، ومتطلبات العقليات، واستعدادات الشخصيات، وثقافات الجماعات، وسلوكات الأمم الناجيات، وشرائع الرحمة الميسرات. ففى المنهج النبوى، سبل لهداية الناس إلى الأعمال الصالحات، والاقوال الصائبات، والعبادات الصحيحة، والمعاملات النافعات، والمواقف المرضيات.

لقد قسمت هذا الكتاب إلى تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة. بسطت الحديث في الفصل الأول، عن الإطار المنهجي العام، الذي يجب أن يدرس فيه المنهج النبوي، مركزاً على أهمية النظرة الكلية إلى السنة النبوية، وإلى طبيعتها الحضارية، مع إبراز بعض أبعاد المنهج النبوي، كالبعد المقاصدي، والبلاغي الدعوي، والسُنَّي، وتدعيمها بنماذج، ودروس من الفقه النبوي العملي.

أما الفصل الثاني، فقد خصص لمعالجة قدرة المنهج النبوي على فهم، واستيعاب الظاهرة التغيرية في العصر العالمي، مع تحديد أسباب هذه القدرة، ومحاولة اكتشاف منطقية السنة النبوية، ومنهجها الاستدلالي. وبعد ذلك حاولت تحديد بعض الخصائص التي تطبع الواقع العالمي الراهن، مع إعطاء نموذج تحليلي لقدرة المنهج النبوي على حل المازق العالمي الراهن، ومحاولة تحديد مفهوم إسلامي للتغيير الحضاري، بجانب الإشارة إلى بعض الفهوم المزيفة للتغيير.

أما في الفصل الثالث، فقد أثرت قضية من أهم قضايا الفكر الإسلامي، وهي المنهج النبوي وقدرته على تركيب حضارة في العصر العالمي، وهنا تطرق التحليل إلى بعض القوانين التي تحكم التغيير الاجتماعي، ومنها قوانين التوجيه، وفلسفة الانطلاق، والثقافة. كما تم التنبيه إلى منهج الترشيد النبوي للحركة التغيرية، وإلى محاولة استخراج معالم المنهج النبوي، وطبيعة الإنسان الذي يريد هذا المنهج تشكيله، وتقديم نموذج لإنسان الاستخلاف الذي بناه رسول الإسلام ﷺ. ثم ختمت البحث ببعض الملاحظات المهمة.

لقد تم هذا العمل المتواضع في قسمه الأول «المقدمات»، بحول الله

وتوفيقه، وإننى لسعيد جداً أن أشير إلى تلك الجهود التي بذلها أخي الأستاذ مصطفى عبد اللطيف حللي، في سبيل إنجاز هذا الجهد البسيط، الذي استفاد كثيراً من نصائح، وتوجيهات أخي العزيز الدكتور إبراهيم محمد زين، الذي كان فعلاً مثقفاً مسلماً متميزاً باهتمامه بقضايا الأمة، حريصاً على مستقبلها، عاملاً من أجل نهضتها. فقد عرضت عليه فكرة الكتاب في البداية، فرحب بها، وأبدى رايه الذي أقدره كثيراً، ثم بعد أن أنجزته بحول الله وقوته، أطلعتة عليه مخطوطاً، فطلب مني أن أقوم بنشره بسرعة. كما سعدت كثيراً بترحيب البروفيسور الدكتور عبد المجيد مكين المفكر السيلاني المسلم بفكرة هذا الكتاب، حيث أفدت كثيراً من أفكاره، وتوجيهاته القيمة. فجزى الله سبحانه وتعالى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل، من قريب أو بعيد.

كوالامبور - ماليزيا
١٥ / ديسمبر ١٩٩٣ م

الفصل الأول

الإطار العام لدراسة المنهج النبوي

كما هو معلوم في كل نوع من أنواع المعرفة البشرية، أن دراسة أي مشكلة من المشكلات، يقتضي بالضرورة أن يمتلك الباحث رؤية، أو منظوراً منهجياً، يتصور من خلاله المسائل، ويحلل في ضوءه الفرضيات، والإشكاليات المطروحة على بساط البحث. ودراسة السنة النبوية، كظاهرة دينية، واجتماعية متصلة بالواقع الإنساني، في كل مستوياته، العقلية، والنفسية، والسلوكية، والعمرانية، الفردية، والجماعية، بحاجة إلى مدخل منهجي، يتيح للباحث فيها فرصة دراستها بشكل مستوعب، ينكب به إلى فهمها، واستخراج قوانينها، وسننها، وإدراك منطقيتها، ومنهجها الاستدلالي، ونظامها الفكري الذي يفرع إلى ما هو إلهي، وإلى ما هو بشري. فالدراسة العلمية للسنة النبوية، باعتبارها مركباً لحضارة من جهة، وأثراً من آثار الوحي على أرض الواقع من جهة أخرى، تستدعي فهماً مستوعباً للمفتاح المدخلي، الذي يمكن الباحث من دراستها بشكل صحيح، ومثمر.

أهمية النظر الكلي في قضايا السنة

فكثير من البحوث الإسلامية في هذا الميدان، وعلى اختلاف لمداخل الدراسة أظهرت أن هناك قصوراً منهجياً في إطار الدراسة، وأرضيته التحليلية، يؤدي دائماً إلى تقديم السنة من إحدى زواياها المتعددة دون الأخرى. وهذا ما يجعل عملية التفاعل مع السنة تعاني من «النظرة الجزئية» التي تكتشف أحد أبعادها معزولة عن الأبعاد الأخرى... فالتكلم، والأصولي، والمحدث، والمفسر،

والفقيه، وعالم السيرة، والتاريخ، وعالم الاجتماع، والاقتصادي، والسياسي، والعسكري، والفيلسوف، والتهوي، والمفكر... كل واحد من هؤلاء له منهجية في دراسة السنة النبوية.. فمحاولات الاستفادة منها تتم من زاوية تناول التي تخدم مجال الدراسة.. وكل منهجية تكشف لنا بعداً من أبعاد السنة، فلو تأتينا لأحد تقديم دراسة تكاملية، تستفيد من كل هذه المنهجيات، وتنظر إلى السنة في كل أبعادها، لقدّم لنا منهجاً جديداً، ومدخلاً متكاملاً، قد يتيح لنا فرصة فهم السنة، والإفادة منها في حياتنا العقلية، والنفسية، والسلوكية، والعمرانية...

وسوف لا أزعج في هذه الدراسة، أنني قادر على تقديم هذا المنهج المتكامل في دراسة السنة النبوية، لأسباب أذكر منها هنا سببين اثنين هما :

– صعوبة المهمة على الصعيدين المنهجي، والمعرفي معاً. فالمنهجية المتكاملة في دراسة السنة النبوية، تقتضي سبراً عميقاً للمناهج الجزئية في دراستها، وهي التي أشرنا إليها قبل قليل.. وكذلك بالنسبة للجانب المعرفي الذي يقتضي إلماماً واعياً بما أنتجه تطبيق المناهج الجزئية من معارف، وأفكار منشورة في كتب الأمة المتنوعة، وهذا بما هو متعذر في الوقت الراهن على المؤسسات، ناهيك عن الأشخاص..

– أما السبب الثاني فهو راجع إلى منهجية هذا البحث المتواضع، إذ لا يمكن الحديث عن مثل هذا الطرح قبل وضع إطار منهجي له، تدرس ضمنه الأفكار، وتحلل الإشكاليات.

طبيعة الجهد النبوي من الوجهة الحضارية

فمن هنا آثرنا في هذه الدراسة الأولية، في موضوع (المنهج النبوي والتغيير الحضاري الجديد)، أن نحاول تحديد مدخل منهجي عام للتعامل مع الظاهرة السنية.

إن دراسة سيرة الرسول ﷺ وحركته، في مدة ثلاثة وعشرين عاماً، هي في جوهرها دراسة في تشكيل حضارة، وبناء نموذج حياتي جديد، يدين :
 ب (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) . فآقواله، وأفعاله، وتقريراته، وشمائله، وفضائله، وأخلاقه ﷺ هي القواعد التي عليها بنى المجتمع الإسلامي، وعضد لبناته . فلم يكتف عليه الصلاة والسلام بوضع مخططات التغيير، وبرامجه، ومناهجه، وكيفياته، وموجباته، بل ساهم في البناء حتى وصل به إلى المرحلة التي اكمل فيها (مهمة البلاغ المبين) التي أمره بها الخالق عز وجل . حيث لا يمكن لأي مشكك أو متوهم أن يثير أي شبهة عن كمال هذه المهمة، وشمولها لكل ما يخص بناء الإنسان، والمجتمع، والثقافة، والحضارة التي تدين بالإسلام .

قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

ومهمة البلاغ المبين على الصعيد العملي، هي التي أنتجت الحضارة الإسلامية، وأدخلت القبائل العربية الجاهلية إلى مرحلة التفاعل مع القضايا الحضارية الكبرى التي كانت تدور على محوري فارس، وروما . فالمبلفون الاوائل تحت قيادة الرسول ﷺ هم المؤسسون (لعلم الدعوة الحضارية العالمية) على الصعيدين النظري، والعملي . وبطبيعة الحال تكون دراسة الحضارة الإسلامية الأولى هي دراسة في صميم الجهد النبوي، وفي منهجيته في البلاغ، والدعوة، والتغيير الحضاري، والتي كان من آثارها ذلك العملاق الإسلامي الذي أثرى مسيرة الإنسانية، وقدم لها نموذجاً حضارياً فطرياً متوازناً، ومتطابقاً مع الخطاب الإلهي . . فكانت الحضارة الإسلامية هي (حضارة المصلحة) بخلاف الحضارات التي عاصرتها، والتي نعاصرها نحن اليوم بعد أربعة عشرة قرناً من

الزمان، أعني (حضارات المصلحية) !! .

فالدارسون لجهد الرسول ﷺ الثاوي في كل جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، يجب أن يلاحظوا بأن هذا الجهد كان نتاجاً طبيعياً لتفاعل عناصر أساسية لا يمكن أن نفهمها إلا في صورة متكاملة، تقدر قيمة كل عنصر من عملية البناء الحضاري النبوي وهي :

- عنصر الوحي الاعلى (قرآنًا وسنة) بما فيه الرؤية، والمنهاج، والمشروع الإسلامي .

- وعنصر الواقع الجاهلي، في معناه الشمولي المتضمن لحضارتي فارس، والروم .
- والجهد النبوي، في منهجيته، ومقاصده، ووسائله، وأساليه .
- وجهد الصحابة، على اعتبار كونهم الجماعة المؤسسة الأولى ..

فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر، كان يتحرك بالوحي في واقع إنساني، ومطالب بالتبليغ عن ربه، وذلك بدعوة الناس إلى الإسلام، وتشكيل الجماعة الموحدة التي تحمل هم المشروع، وهم توريثه للأجيال الإسلامية المتعاقبة . فمهمة الرسول ﷺ تقتضي وعياً على الخطاب الإلهي، ووعياً على الواقع، ووعياً على معادلات البشر، والمجتمعات المعاصرة، ووعياً على منهج البلاغ المبين، ووعياً على علوم التوجيه، والتربية، والسياسة، والاجتماع، والتاريخ والحروب .. ونحن عندما ندرس جهده عليه الصلاة والسلام، نجد فيه كل هذه التخصصات منظمة في وحدة متكاملة، ومتناسقة . ففي كل عمل أو قول أو تقرير أو خلق ... تبرز لك الحكمة، وترى الوعي يتدفق ليروي عقول العلماء العظام الذين أفنوا أعمارهم في التحصيل، فلا يسعهم أمام هذا الجهد إلا الاعتراف الصادق والحقيقي بعظمته، وصحته، وفعاليته ..

معالم منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين

إن دعوة الرسول ﷺ كمبلغ عن ربه سبحانه وتعالى، دعوة عالمية إنسانية، موجهة إلى كافة الخلق بخطاب أخلاقي، وعقلي، غايته بناء الحضارة التي يكون بمقدورها تحقيق مقاصد الشارع في الخلق، وتوفير موجبات الاستخلاف للعباد. لقد كان عليه الصلاة والسلام يخاطب الناس حسب أفهامهم، ودرجات وعيهم، وقدراتهم، وفي كل خطابه راعى الرحمة، والتيسير على الخلائق، وحملهم محمل المصلحة، ورفع الحرج، ونبذ شرائع الأصر والأغلال، وإدخالهم في السلم كافة، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧). وقال رسول الإسلام ﷺ : (يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا) (١).

وعليه، فدراسة منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين، يجب أن تتم على أساس هذا الوعي الغائب، والجاري على المصلحة.

وإذا كانت منهجية الرسول ﷺ مستندة إلى قاعدة المصلحة، والتيسير، والعلم بحاجات الخلق، وقدراتهم، ومراعاة أحوالهم في السراء والضراء، والمنشط والمكره، فإن فهمها كمنهجية لفعل حضاري توحيدي، يجب أن يتأسس على هذا الفقه المصلحي. ونحن هنا لكي نفهم المنهجية النبوية لأبد أن ندرسها من خلال بعض المداخل المهمة، والتي منها :

— البعد التوحيدي.

— البعد المقاصدي.

— البعد البلاغي (الدعوة).

— البعد السنّي.

(١) متفق عليه من حديث انس.

– البعد العقلي (العملي) .

– البعد الأخلاقي .

– البعد الزماني .

وفي هذه الدراسة سوف نركز على تحليل بعدين ، مرجئين غيرها إلى حينه
بإذن الله تعالى .

أولاً : البعد المقاصدي للمنهج النبوي

الجهاد النبوي بأكمله مبني على مراعاة مقاصد الشارع في الخلق، ونحن في هذا العنصر، نريد فهم المقاصد كإطار منهجي، كان سمة الجهد النبوي خصوصاً، وكضابط حاكم على الحركة الاجتهادية الإسلامية عموماً.

ملاحظة عن النظام المقاصدي

فقصد الشارع قد انصرف ابتداءً إلى درء المضرات على الناس، وجلب المسرات الدنيوية، والأخروية لهم. فالنظام المقاصدي ركب أصلاً من أجل تحصيل مقصد كلي عظيم، يفتقر إليه الوجود البشري بفطرته التي فطره الله عليها، وهو (مقصد الاستخلاف) الذي تنبني عليه كل المقاصد الأخرى، وتصدر عنه منظومة المصالح البشرية. يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في موافقاته: (لما انبنت الشريعة على قصد المحافظة على المراتب الثلاث من الضروريات، والمحاجيات، والتحسينيات، وكانت هذه الوجوه مبثوثة، في ابواب الشريعة، وأدلتها غير مختصة بمحل، ولا بباب، ولا بقاعدة دون قاعدة، كان النظر الشرعي فيها أيضاً عاماً لا يختص بجزئية دون أخرى، لأنها كليات تقضي على كل جزئي تحتها «...» فإذا وجدنا أن الحفاظ على الدين، أو النفس، أو النسل، أو المال، أو العقل، في الضروريات معتبر شرعاً، ووجدنا ذلك عند استقرار

جزئيات الأدلة، حصل لنا القطع بحفظ ذلك، وأنه المعتبر حيثما وجدناه (١).

مقصد الاستخلاف

ففي كلية الاستخلاف التي هي أصل الكليات السابقة، نجد مصالح الفرد، ومصالح المجتمع، كما نجد مصالح الإنسانية... فحفظ الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، أمور مطلوبة شرعاً.. ولكن كلية الاستخلاف الكبرى التي بعث الخطاب الإلهي من أجل تحقيقها، لا تقتصر على القضايا الخمسة المذكورة في معظم كتب الأصول، ولكنها تتعدى لتنبيه إلى قضية أخرى في غاية الأهمية، وسوف لن نتحقق مصالح العباد على الوجه المطلوب إذا لم تراعى. وهذا معناه أن النظام المقاصدي القائم، يحتمل إضافة كليات، يمكن أن تكون مما دل الشرع على اعتبارها، وجاء أصلاً للمحافظة عليها، وفي هذا يقول ابن تيمية - رحمه الله - عن علماء الأصول المشتغلين بفكرة المقاصد :

(... رأوا أن المصلحة نوعان : أخروية ودنيوية، جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس، وتهذيب الاخلاق، من الحكم، وجعلوا الدنيوية : ماتضمن حفظ الدماء، والأموال، والفروج، والعقول، والدين الظاهر، وأعرضوا عن العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وأحوال القلوب، وأعمالها : كمحبة الله، وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل، والرجاء لرحمته، ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة، وكذلك فيما شرعه من الوفاء من العهود، وصلة الأرحام، وحقوق المالك، والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك مما أمر به ونهى عنه : حفظاً للأحوال السنية، وتهذيب الاخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من مصالح) (٢).

(١) المؤلفات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، ج ٢، دار الفكر العربي، ص : ٥ - ٦ - ١٠ يتصرف خليف.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج ٢٢، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد.

إن ملاحظة شيخ الإسلام تبحث في صميم (النظام المقاصدي) (١) ؛ وكأنه يريد أن ينبه على ضرورة إعادة قراءة مقاصد الشريعة، ومحاولة إدراج أهداف أخرى دل الشرع على اعتبارها، حيث رأى أنه من الضروري إلحاقها بالكليات السابقة.. وسواء أكان ما اقترحه من مقاصد يمكن أن يشكل كلية جديدة، تدرج في عداد الكليات الموجودة، أو كان داخلاً أصلاً في الكليات القائمة، ولكن الاشتغال بها كان قليلاً فوجب التنبيه عليها، فإن الأمر الذي يهمننا هنا هو طلب الاجتهاد، والدعوة إليه في قضية تبدو أنها اكتملت حلقتها.. وحتى الإمام الشاطبي الذي أدار البناء الأصولي بأكمله على مقاصد الشريعة، ركز على نفس الكليات الموجودة من قبل.

كلية الكون

إننا ونحن نستقبل العصر العالمي بكل ظروفه، وموجباته، نلاحظ بأن الإنسانية بحاجة إلى فهم أعمق لمقاصد الشارع في الخلق، تلك المقاصد التي إذا لم تعتبر في حياة الناس، فإن ذلك سيفتح عليهم مسالك المضرات، والمشقات، والأهواء التي لا تحمد عقباه في الدارين.

ومن بين المقاصد الكلية الضرورية التي دل الشرع على حفظهما واعتبارها: (مقصد المحافظة على الكون) بمفهومه الواسع، الذي يشتمل على كل ما سخره الله لخلق من بحار، وأرض، وجبال، ومعادن، وطبيعة.. وآيات التسخير في القرآن كثيرة جداً. فما يحصل اليوم في حياة الناس من جراء التفاعل غير الصحيح مع الكون، وما تعانيه البشرية من تلوثات، ومجاعات، وتهديد بتفاد المسخرات الإلهية - حسب البناء الفلسفي للنظرية الاقتصادية المادية - إنما يعبر

(١) راجع البرهان للإمام الجويني، والمستقصى للإمام أبو حامد الغزالي، وإرشاد الفحول للشوكاني، ومقاصد الشريعة للطاهر بن عاشور.

عن جهل الناس لمقاصد الشارع الحكيم، التي دلت على حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل، كما دلت على حفظ الكون ؛ فهذه الكلية الأخيرة تؤدي غرضين في موضوع الاستخلاف :

- التسخير المادي وما يشتمل عليه من خيرات هي قوام العمران البشري، والبناء الحضاري في جانبه المدني والمعاشي ...

- التسخير السُّنِّي وما يشتمل عليه من آيات، وسنن، وقوانين دالة على أنه الحق تبارك وتعالى .. قال عز وجل : ﴿ سَتَرْنَاهُمْ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ ﴾ (فصلت : ٥٣) . فللكون دور أساس وضروري في هداية الناس إلى الحق تبارك وتعالى . والناس عندما لا يحافظون على الكون، ولا يسخرونه كما أمر تبارك وتعالى، فإنهم سيهلكون؛ وما تلوث البيئة الحالي، الذي يهدد بهلاك النسل، إلا مظهر من المظاهر الدالة على أزمة عدم المحافظة على كلية الكون، التي دل الشرع على اعتبارها، إذ بدون ذلك ستضيع كل مصالح الناس الخاصة بحياتهم المادية، والمعنوية ..

وهناك توجيه نبوي عظيم الدلالة في هذا الميدان، قلَّ ما يدركه الباحثون وهو قوله ﷺ : (إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها)^(١) .

إن مقاصد الشارع في الكتاب، والكون، والانس، وضعت لتحقيق مصالح العباد في الدارين، وبها سيحصل الاستخلاف الذي وجد البشر من أجله أصلاً، كما أنها تمثل أصلاً، منهجاً تغييرياً مستقيماً على الطريقة .

المنهج النبوي كإطار عملي للمقاصد

من استقراء السنة النبوية، يتضح بجلاء البعد المقاصدي، في السيرة

(١) صحيح . رواه أحمد (صحيح الجامع) .

النبوية، فكل ما صدر عنه ﷺ يقع في دوائر التيسير، والرحمة، والعدل، ورفع
الآصار والأغلال، ويهدف إلى حفظ مصالح الخلق المتعلقة بحياتهم الفردية،
والجماعية، والإنسانية.. وحياتهم المعاشية، والروحية.. فمنهجية الرسول عليه
الصلاة والسلام المضمنة في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وأخلاقه، وشمائله،
مصبوغة بالمنطق المقاصدي الهادف.

فكل جهده يجب أن يدرس في إطار مقاصد الشارع.. فاعتماده على
منهج التربية، والتكوين، والتدريب على الاجتهاد، والتشاور، والتفكير، والتبين،
والسير في الأرض، والجهاد، إنما كانت غايته الأساسية توفير الجو والوسط، الذي
تنمو فيه «العقلية المقاصدية» المتدبرة لخطاب الله، والتي تسبر أعماق البلاغ
الرباني المبين، وتحمل رسالة القول الثقيل.. حيث كان عليه الصلاة والسلام
(مرجعية مقاصدية) توجه الناس إلى الأسرار، والمقاصد التي حملها التكليف
الرباني للخلق.

فعندما نقوم بدراسة سنن نبينا عليه الصلاة والسلام، وأحاديثه التي حوت
أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وسائر أعماله، علينا أن نلاحظ المسحة المقاصدية،
التي لم تكن علماً صناعياً ينكب فيه عليه الصلاة والسلام مع صحابته الكرام
على طاولات البحث، والدرس، والتحصيل المدرسي، بل كانت سلوكاً وروحاً،
تسري في عروق الناس، وتغذي جنين الحضارة برسالة الإنسان في الأرض، وتريه
حقيقة وجود الكتاب، والكون، والناس، وتبين له أن كل شيء وجد ليحقق
مصالح الناس في الدارين..

ثانيا : البعد البلاغي للمنهج النبوي

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ

وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا الْأَلْبَابَ ﴿

(إبراهيم: ٥٢) .

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ
وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة : ٦٧)
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا عَلَى رَسُولِنَا
أَلْبَلَّغُ الْمُنِينَ﴾ (المائدة : ٩٢) .

المنهج النبوي كإطار تطبيقي للبلاغ المبين

هكذا خطت الفكرة القرآنية طريقها نحو مشروعها الاستخلافي، وهكذا
تقرر المنهج ليكون بلاغياً ودعواً في أصوله الأولى . فالبلاغ المبين هو طريق البناء
الحضاري التوحيدي، والدعوة البلاغية هي سبيل التحرك الإسلامي المبين في
التاريخ .

فالمبلغ الذي يحمل هم الدعوة الحضارية العالمية، التي تنبثق في أصولها،
ومنهجها عن مصادر التوحيد الإسلامي، مطالب بالفقه العميق لمنهاج الهداية
الحضارية، ومنهج الإصلاح الإنساني، ومنهجية التغيير الثقافي . وهنا تظهر أهمية
سنة الرسول ﷺ في تقديم الوعي المستوعب، على هذه القضايا المتعلقة أصلاً
بالمناطق العملية للبلاغ المبين، وصياغته التطبيقية، كيما يتحول إلى قوة تنفيذية
للتنظير الحضارية الإسلامية، ومحاولة تحويلها إلى مواقف سلوكية يومية تدخل
في توجيه حياة الناس العامة والخاصة، الأخلاقية والمادية، العقلية والنفسية،
الفكرية والاجتماعية، الأدبية والعمرانية .

فالمنهج النبوي لا يقدم فقط الإطار المرجعي للسلوك البلاغي الدعوي،
والمنهاج التوجيهي للفعل الإصلاحي، والترشيدي، بل يقدم بالإضافة إلى ذلك
البناء العملي لهذه الأفكار النظرية . فالسنة أصلاً موقف عملي منهجي منظم،

دخل في اطراد بناء المجتمع الإسلامي الاول، وترك للأجيال الإسلامية معيار البناء الحضاري الخاضع لتعاليم الوحي، والمنضبط بتوجيهاته. فالباحث في السنة باحث أيضاً في الاصول التطبيقية للحضارة الإسلامية، وفي المناهج السلوكية، التي حولت الفكر النظري إلى سياسة عملية.

ومن هذا التأسيس نكون أمام مطلب جوهرى في التعامل مع السنة النبوية، وهو إلزامية كشف، وفهم البعد البلاغى والدعوى للخطاب الإسلامى، الذى أودعت فيه جهود النبي عليه الصلاة والسلام، روح المنهج البلاغى الإسلامى، وبيئت قواعده، وخصائصه، ومضامينه، ومناهجه.

فالرسول ﷺ كان مبلغاً، ومعلماً، ومصلحاً، وداعياً، وشاهدًا، ومبشراً، ومنذراً، وهادياً، يعتمد في خطابه على (الحكمة والموعظة الحسنة)، تماماً كما دلت النصوص القرآنية والحديثية في مثل قوله تعالى :

﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ بَالِقٍ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾
(النحل: ١٢٥).

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٨).

لقد كان يخاطب النفوس، والعقول بما تطيقه، خبيراً بالواقع، عالماً بأحوال المخاطبين، مدركاً لثقافتهم وتاريخهم، عارفاً بمدخل استجابتهم، مستوعباً لمناهج مجادلتهم، واعياً على قدراتهم، وإمكاناتهم، واستعداداتهم، وآمالهم، وآلامهم.

معادلة البلاغ المبين

لكي ندرك بوعي، نظرية البلاغ المبين، كما تتصورها المذهبية التوحيدية، نحتاج إلى التعرف على أمرين اثنين هما :

١ - مفهوم البلاغ المبين وشروطه .

٢ - محاور البلاغ المبين .

١- مفهوم البلاغ المبين وشروطه

فهم نظرية البلاغ المبين، كما يطرحها النموذج الحضاري الإسلامي، يستدعي عرضها على ميزان خطاب الله سبحانه وتعالى . ففلسفة هذا البلاغ ومناهجه، ووسائله، وغاياته، ومقاصده، تتحدد بالفلسفة القرآنية المتعلقة بقضايا الحياة، والكون، والإنسان، وصيرورة الوجود الدنيوي عموماً . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول: بأن وظيفة البلاغ المبين، هي: تمكين الأمة من إنجاز رسالة الشهادة على الخلق، وتحقيق مسؤولية الأمة الوسط، وإقامة الحجة الدامغة على الناس، وتبيين أنه الحق تبارك وتعالى، وتحقيق تبعات هذه المسؤولية على صعيد :

- العبادة الحققة لله سبحانه وتعالى .

- الإعمار الكوني .

- التسخير السُّنَّي .

- الإنقاذ الحضاري للبشر .

- التعارف الثقافي بين الأمم والشعوب ..

وعليه، فالبلاغ المبين هو جميع الجهود الإسلامية المخلصة لله سبحانه

وتعالى، والمتوافقة مع الهدى النبوي، والهادفة إلى توفير موجبات الاستخلاف الحق في الأرض، وتحصيل مقاصد الشارع في الخلق، عن طريق العرض المنهجي للإسلام في شموليته، وتكامله كنظام حياتي، مستوعب لسعادتي الدنيا والآخرة، وثقيف الناس على مذهبته ورسائله ومشروعه، والسعي إلى بنائه، الواقعي بالوسائل المشروعة والمتماشية مع ظروف الواقع الإنساني المتغير في الزمان والمكان.

ومن هنا، ولكي نحقق بلاغاً مبيناً وهادياً في مستوى التحدي العالمي الذي تستدعيه مسيرة البشرية، وتطوراتها العقلية والثقافية، والمنهجية، والحضارية، علينا أن نحقق بعض الشروط الأساسية، والتي منها :

– الفهم العميق لخطاب الله سبحانه وتعالى، في مذهبته التوحيدية، ورسائله الاستخلافية، ومشروعه الاجتماعي. وتعد هذه الغاية مرحلة من مراحل البلاغ المبين نسميها : (مرحلة فهم الخطاب الإلهي).

– الفهم العميق لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وفلسفته في البلاغ المبين، ومنهجه في الهداية، ومنهجيته في تطبيق الإسلام، وبنائه واقعياً، وتعتبر كذلك هذه الغاية، مرحلة من مراحل البلاغ المبين نسميها : (مرحلة فهم النموذج التطبيقي للإسلام).

– الفهم المستوعب للسنة الإلهية التكوينية، والتاريخية، التي تتحكم في البلاغ المبين، وفي بناء الدعوات الحضارية، وتعتبر هذه الغاية كذلك من مراحل البلاغ المبين ونسميها : (مرحلة السير في الأرض، والوعي السنتي).

– الفهم العميق لطبائع المراحل الحضارية التي مرت، وتربها البشرية، بغرض فهم صيرورتها فوق الكوكب الأرضي، ونسمي هذه المرحلة من مراحل البلاغ المبين : (مرحلة فقه العمر الحضاري للإنسانية).

– الفهم المستوعب للواقع المحلي، والعالمي، في تركيبه، وبنائه، وتاريخه،

ونسمي هذه المرحلة البلاغية: (بمرحلة فهم الواقع القائم، والخبرة التاريخية، والمستقبل المنشود للبشرية).

- الفهم العميق لمنهاج بناء البلاغ المبين في الواقع الحياتي للناس، وتعد هذه المرحلة البلاغية مرحلة تطبيقية تنتج عن الوعي المتحصل من فهم المراحل السابقة، ومحاولة استخدامها في مشروع اجتماعي عملي، ونسميها (مرحلة البناء الحضاري) (١).

٢ - محاور نظرية البلاغ المبين

فإذا أدركنا بأن مفهوم البلاغ المبين مستوعب لرسالة حضارية جماعية، واستشعرنا صعوبة تحقيق شروطها، وضخامة المهمة الملقة على عواتقنا كابناء أمة إسلامية رسالية، وجب علينا أن نفهم المحاور النظرية، والتطبيقية لنظرية البلاغ المبين (٢).

فلكي نؤدي وظيفة البلاغ المبين، علينا أن نعي فلسفة هذا البلاغ، ومناهجه، وعلاقته بالعلوم النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والعلوم الشرعية من جهة، والعلوم السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والوسائطية، والإعلامية، والجغرافية، والتكنولوجية، والصناعية، والعلوم الطبيعية، والكونية (الآفاقية) من جهة ثانية.

إن الصلة وثيقة جداً بين هذه العلوم، ونظرية البلاغ الإسلامي المبين، على اعتبار أنه - البلاغ - الغاية القصوى لكل هذه العلوم. فكل علم إسلامي نقلي أو عقلي، مطالب شرعاً بأن يقصد في غايته، المساهمة في البلاغ المبين؛ إذ هذه العلوم تبقى فاعلة، وعملية، إذا نزلت إلى ساحات البلاغ التي تقدم فيها الهداية

(١) راجع كتابنا: التفسير الحضاري والسنن الإلهية تحت الطبع، وستجد فيه كل التفاصيل المتعلقة بهذه المراحل وأهميتها.

(٢) راجع: الخطاب الإسلامي وموقف المسلمين منه، للشيخ الطيب برغوث.

الإسلامية للبشرية في كل المجالات الحياتية، ونحن في هذه الدراسة الأولية سوف لا نتبع هذه الصلات الموجودة بين البلاغ المبين، والعلوم المختلفة، لأسباب منهجية، وموضوعية خاصة بوحدة الموضوع، ولكننا سنقتصر على ذكر ملاحظات عن المحور الفلسفي، والتاريخي، والواقعي «المنهجي» للبلاغ المبين كما عرضته سيرة الرسول ﷺ مرجئين المحور السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والتربوي، والمعرفي إلى حينه إن شاء الله.

أ - المحور الفلسفي للبلاغ المبين

وأعنى به فلسفة هذا البلاغ، ومضامينه التصورية الكبرى، وعلاقاته المنهجية الأساسية. فالبلّغ الإسلامي عن الله سبحانه وتعالى، مُطالب بأن يفهم بأن الإصلاح، والترشيد، والهداية، والدعوة، والتعليم، كما تطرحه نظرية الإسلام الحضارية، تقتضي الوعي على مراتب، ومستويات، ومضامين العلاقات الدعوية، القائمة في نظرية البلاغ المبين. فلكي يكون هناك بلاغ مبين، كما تطرحه الفلسفة التغييرية القرآنية، علينا أن ندرك بعمق العلاقات المترتبة عن العناصر التالية :

- علاقة الإنسان المستخلف بالخالق سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان، والكون، والحياة.. ولهذه العلاقة مراتب يجب وعيها هي : مرتبة التكليف، ومرتبة التوحيد، ومرتبة العبودية، ومرتبة المقاصد، ومرتبة الاستخلاف..
- علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في مراتبها التالية : مرتبة الاجتماع، ومرتبة الأمة، ومرتبة الرسالة، ومرتبة الثقافة، ومرتبة الحضارة، ومرتبة التاريخ..
- علاقة الإنسان بالكون في مراتبها التالية : مرتبة التسخير، ومرتبة الإعمار، ومرتبة كشف الآيات، ومرتبة استخدام السنن، ومرتبة المؤاخاة بين الإنسان والكون..

- علاقة الإنسان بالحياة في مراتبها التالية : مرتبة فهم الزمن، ومرتبة فهم المتاع، والعرض الدنيوي، ومرتبة فهم لحظات العبور، أو كما أثر عن الإمام علي كرم الله وجهه: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً).

فمن هذه العلاقات الأساسية، تنبني نظرية البلاغ الإسلامي، وتتوحد العلوم لاداء رسالة تبين انه الحق تبارك وتعالى . فلكي نقدم بلاغاً إسلامياً تبشيراً، وتعليمياً هادياً، علينا أن نفهم بعمق هذه العلاقات المتناغمة بين عناصر نظرية البلاغ الإسلامي المبين : الخالق تبارك وتعالى، والإنسان، والكون، والحياة ..

ب - المحور التاريخي للبلاغ المبين

نعني بالمحور التاريخي للبلاغ المبين: مراعاة تاريخ الأمم، والشعوب، ومعرفة ثقافتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وذلك عندما نبدأ في ممارسة العمل الدعوي، حتى نخاطب الناس من خلال المداخل الطبيعية لاستجاباتهم. والرسول ﷺ كان خبيراً بتاريخ المجتمعات التي كان يمارس عليها الدعوة، والبلاغ المبين، ومن أمثلة هذا الوعي قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه الذين اضطهدوا، أمراً لهم بالهجرة إلى الحبشة : (إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض الصدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) ^(١). فهذا الوعي التاريخي بشخصية هذا الملك، وعدله، وبالأرض وخاصيتها، إنما يعبر عن إدراك النبي ﷺ لأهمية المحور التاريخي في البلاغ المبين. والوعي التاريخي متحصل من السير في الأرض، والنظر في سنن الأولين، وفي آيات الله في الآفاق والأنفس ..

يقول الأستاذ جودت سعيد : (ثم إن الرسول ﷺ نفسه يستخدم آيات الآفاق والأنفس، ليحل المشكلة خارج النصوص . ولا مانع من التذكير بالحديث الذي أكرره كثيراً لما له من الدلالة، والأهمية في هذا الموضوع، موضوع آيات الآفاق، والأنفس .. ذلك الحديث الذي يترك فيه الرسول ﷺ الاحتجاج

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، القسم الأول، ج ١ - ٢، ط: ٢، السنة: ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، ص: ٢٩٦.

بسلطانه النبوي، وسلطان ما أوحى إليه، ليتخذ من آيات الآفاق والانفس دليلاً، وحجة لبيان موضوع معين، وقع الجدل فيه مع صاحبه زياد بن لبید : « ذكر ابن كثير في تفسير سورة المائدة الآية ٦٣ ، وصححه عن الإمام أحمد قال : ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال : « وذاك عند ذهاب العلم » ، قلنا يا رسول الله : كيف يذهب العلم ؟ ونحن نقرأ القرآن ، ونقرئه أبناءنا .. وابتناؤنا يقرئون أبناءهم ؟! فقال : « ثكلتك أمك يا ابن لبید ، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة . أليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة ، والإنجيل ، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟! » .. هنا يلجأ الرسول ﷺ إلى آيات الآفاق والانفس ليحسم النزاع ، والجدل في آيات الكتاب ، وإن آيات الكتاب قد تكف عن أدائها دور العلم ، في ظروف معينة ، والرسول ﷺ هنا يستشهد بحدث تاريخي واقع أمام العالم جميعاً ، لا يمكن أن ينكره أحد . وهذه القوة لآيات الآفاق والانفس ، أشرنا إليها قريباً حين قلنا : إن دلالتها عالمية ، وفوق الايديولوجيات ، ولم يحاول هنا رسول الله ﷺ أن يقول : أنا رسول الله ، ولا انطق عن الهوى ، وعليك أن تسلم بما أقول ، ولا تجادل فيه . إن هذه الحادثة ، والحوار العجيب الذي دار في مطلع الحياة الإسلامية ، لعميق الدلالة ، وسوف لا يكف عن عطاء ما يحتويه من منهج لا يزال يتالق على مر العصور في أهمية الوقائع في الآفاق والانفس . وهذا ما أردنا أن نضعه أمام الشباب المسلم ليتأملوا فيه ، ليس كحدث جزئي ، وإنما كمنهج (١) * .

(١) اقرأ وريث الأكرم، جودت سعيد، ط : ١ ، السنة : ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، دار الفكر، دمشق، ص : ٢٢٢ - ٢٢٣
 * قول الأستاذ جودت سعيد فخر الله له : « إن الرسول ﷺ نفسه يستخدم آيات الآفاق والانفس ، لحل المشكلة خارج النصوص » ، نخشى أن يكون فيه شيء من الالتباس والمغالطة والمجازلة أيضاً ، لأن استخدام آيات الآفاق والانفس ، وأهمية النظر فيها ، والاستدلال بها ، لا يخرج عن عطاء النصوص ، بل النصوص هي التي أرشدت إليه ، ودعت إلى اعتمادها ، والاستدلال به ، وتسخيره .
 والأعجب من ذلك قول الأستاذ جودت أيضاً : « إن آيات الكتاب قد تكف عن أدائها دور العلم في ظروف معينة » ! أليس استخدام آيات الانفس والآفاق ، هو دليل قاطعية آيات الكتاب ، وعدم عطائها من أداء دور العلم ؟! - الناشر - .

إننا حقاً لا نستطيع إدراك جهود الرسول ﷺ إلا إذا نظرنا إليها كمناهج متكاملة، وتاملناها كوسائل فاعلة في بناء الحياة الإسلامية.

ج - المحور الواقعي للبلاغ المبين

إن الطبيعة البلاغية، والدعوية للرسالة الإسلامية هي التي استدعت الوعي على أحوال الخلق، وطبائعهم، واستعداداتهم، وميولهم، وقدراتهم وذلك بغرض مخاطبتهم بما يطيقون من غير إكراه، ولا تعسف. ومعنى المحور الواقعي للبلاغ المبين هو إدراك معادلات الناس الفردية، والاجتماعية، ومخاطبتهم حسب ظروفهم، ومشاكلهم، واكتساب مفاتيح التعامل مع أوضاعهم كما هي في الواقع المعيش^(١). والنبي عليه الصلاة والسلام، خبير بهذا الجانب من جوانب البلاغ المبين، عارف لأسراره، وخباياه، ومناهجه، ووسائله، وليس أدل على هذا، تتبع منهج النبي عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الأفراد والجماعات. يقول الإمام الشاطبي مقعداً لقانون دعوي منهجي، مستخلص من الفقه النبوي :

(النظر فيما يصلح بكل مكلف في نفسه، بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص، إذ النفوس ليست في قبول الأعمال على وزن واحد... فصاحب هذا التحقيق الخاص، رزق نوراً يعرف به النفوس، ومراميها، وتفاوت إدراكها، وقوة تحملها للتكاليف، وصبرها على حمل أعبائها، أو ضعفها، ويعرف التفاتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها. فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص، ما يليق بها، بناء على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف)^(٢).

(١) راجع : الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية ، للشيخ الطيب برغوث .

(٢) المواقف ، ج ٤ ، ص ٤٨ ، بتصريف خفيف .

فهذه قاعدة من قواعد التعاطي مع المنهج البلاغي النبوي، الشاوي في سنته ﷺ وهذه جملة من النماذج الواقعية لهذه المنهجية .

فمن ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل في أوقات مختلفة عن أفضل الأعمال، وخير الأعمال، وعرف بذلك بعض أوقات من غير سؤال، فأجاب بأجوبة مختلفة، كل واحد منها، لو حمل على إطلاقه، أو عمومه، لاقتضى مع غيره التضاد والتفضيل .

ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام «سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : جهاد في سبيل الله . قال : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور» (١) .. «وسئل عليه الصلاة والسلام : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها ، قال : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قال : ثم أي ؟ قال : جهاد في سبيل الله» (٢) .

وفي النسائي عن أبي أمامة قال : أتيت النبي ﷺ فقلت مرني بأمر آخذه عنك . قال : «عليك بصوم فإنه لا مثيل له» (٣) .

وفي الصحيح في قول : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... إلخ . قال : ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» (٤) .

وفي الترمذي : «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» (٥) ..

وفي البزار : «أي الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء المرء لنفسه» (٦) ..

وفي الترمذي : «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن» (٧) .

(١) رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه النسائي (صحيح النسائي للكباني) .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه الترمذي (صحيح الترمذي للكباني) .

(٦) قال الهيثمي في المجمع : رواه البزار بإسنادين أحدهما جيد .

(٧) رواه الترمذي (صحيح الترمذي) .

وفي البزار : « يا أباذر ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ عليك بحسن الخلق ، وطول الصمت ، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلاق بمثلهما » (١) ..

وفي مسلم : « أي المسلمين خير ؟ قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » (٢) .. وفيه : « أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٣) .. وفي الصحيح : « وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر » (٤) .. وفي البخاري : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٥) .

ومن الضوابط الدعوية أن يخاطب الناس بما يفهمون ، فقد روي عن علي رضي الله عنه ، قوله :

(حدثوا الناس بما يفهمون . أتريدون أن يكذب الله ورسوله) (٦) .

ويضيف الإمام الشاطبي ضابطاً آخر في عالم البلاغ المبين ، محاولاً تحديد منهجية للتعامل مع العقول ، والأذهان ، والوقائع ، والأزمان ، حسب ما تتطلبه منهجية الدعوة في المنهاج الإسلامي قائلاً : (وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة ، فإن صحت في ميزانها ، فانظر في حال مالها بالنسبة لحال الزمان وأهله ، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة ، فاعرضها في ذهنك على العقول ، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها ، إما على العموم ، إن كانت مما تقبلها العقول على العموم ، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم ، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية) (٧) .

(١) قال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط ، ورجال أبي يعلى ثقات .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه البخاري .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، موقوفاً على علي رضي الله عنه .

(٧) الموافقات ، ص ١٩١ .

دروس من الفقه النبوي

والذي يتعمق في دراسة الجانب التطبيقي للإسلام، من خلال السيرة النبوية الشريفة، يرى كيف وفق رسول الله ﷺ، في مواجهة مشكلات المجتمع الجاهلي، وكيف كان يتعامل مع النفوس البشرية المتباينة : فكراً، ومزاجاً، ومكانة. وكيف كان يتدرج بها من مرحلة إلى مرحلة، بصبر وأناة، وحكمة، حتى نقلها من الجاهلية إلى الإسلام.

لقد كان من أبرز خصائص، وسمات المنهج النبوي: «التغيير المتدرج حسب الأولويات» كما أفصحنا عن ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي تصف منهجية التغيير الإسلامي، التي كانت وراء نجاح الدعوة الإسلامية : «إتما نزل أول ما نزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو كان أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تنزوا، لقالوا لا ندع الزنا أبداً» (رواه البخاري).

والمسلم اليوم عندما يتأمل عمل النبي ﷺ في التربية والحركة، يجد أن من بين أهم المفاتيح التي فتح بها مغاليق النفس البشرية، وغير بها أوضاع الحياة الاجتماعية : «قدرته الفائقة على فهم النفوس البشرية، والأوضاع الاجتماعية، وإدراك المؤثرات النفسية، والبيئية التي يخضع لها الناس، والتعامل معها على ضوء ذلك الفهم الشمولي العميق» الذي كان خير معين له على طرح الحلول

الجذرية، للمشكلات الإنسانية، النفسية، والاجتماعية، الفردية،
والجماعية.

ولقد أعانه على امتلاك تلك القدرة في فهم النفوس البشرية، والأوضاع
الاجتماعية، وإدراك المؤثرات النفسية، والبيئية أمران أساسيان هما :

– الوحي الأعلى .

– والاستعداد الذاتي .

فالوحي الأعلى كان يطلعه به الله سبحانه وتعالى سواء عن طريق جبريل
عليه الصلاة والسلام مباشرة، أو عن طريق الإلهام في بعض الأحيان عندما تقصر
وسائله الخاصة، في التحري، والتدقيق، ويبدو أن أمراً مهماً سيفوته، أو خطراً
كبيراً سيلحقه، كما في تأمر بني النضير على قتله .. وكما في قصة حاطب بن
أبي بلتعمة .. وكما في قصة فضالة الذي جاء يريد قتله، وغيرها من الوقائع التي
يعلم بها رسول الله ﷺ عن طريق الوحي، فيأخذ حذره منها، ويحتاط لها.

والاستعداد الذاتي : حيث كان عليه الصلاة والسلام يهتم بمعرفة كل
صغيرة وكبيرة في المجتمع، الذي يكون فيه، ويكلف أصحابه بإبلاغه ما يصلهم
من معلومات وأخبار عن أحوال الناس، وأوضاع المجتمع.

قال القاضي عياض فيما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما :
« ... فيتشاغل بهم – أي الناس – ويشغلهم فيما يصلحهم والامة، ومن مسأله
عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول : ليلبلغ الشاهد منكم الغائب،

وابلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته ... يكرم كريم كل قوم ويولييه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويفتقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس».

«ويرسل رجاله المقتدرين إلى الجهات التي يريد معرفة حالها، فيأتونه بالأخبار التي يستعين بها على رسم خطته، وإنفاذ أمره»^(١). ومواجهة أعباء ومسؤوليات الدعوة، والحدب عليها، حتى لا يلحقها الأذى.

فخبرته ﷺ بالنفوس والأوضاع البشرية، وحرصه على متابعة مجريات الأحداث، والإشراف عليها ولو من بعيد، ساعده كثيراً في ضمان قدر هائل من الفاعلية في حركته، لأنها كانت «تتم في الوقت المناسب، وبالكيفية المناسبة»، فلم يكن تستفز الأحداث، وتضطره إلى المغامرة - رغم كثرتها وإلحاحها - بل كان يتحرك بخطى مدروسة، يستلهم فيها واقع الأفراد والمجتمع والدعوة، وكما تجمعت لديه معطياته عن طريق الوحي الأعلى، والتحرك الذاتي.

(١) هذه البروس القيمة، نقلتها بتصريف خفيف من كتاب: «الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية» للشينخ الطيب برغوث، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط ١، السنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٥م.

الفصل الثاني

المنهج النبوي والتغيير في العصر العالمي

إن الجهد الرائع، الذي بذله العقل المسلم، في ميدان مواجهة خصوم المنهج النبوي، قديماً وحديثاً، قد أتى أكله بحول الله وقوته، أضعافاً مضاعفة، لما كان متوقعاً، وهذا فضل من الواحد القهار سبحانه وتعالى. فقد خرجت السنة النبوية منتصرة من صراع مرير، خاضته ضد الهوى، الذي انغرس في نفوس المغرضين، والمتأولين، الذين ما تركوا سبيلاً إلا وسلكوها محاربتها، ومحاولة النيل منها. فكان الصراع محتدماً على كل الأصعدة : صعيد المنهج والمعرفة، وصعيد مضمون السنة وحملتها، وصعيد فهمها وتطبيقها.

فلم تكن المعركة السُّنية - إن صح التعبير - سهلة، وبسيطة، بل كانت شرسة، ومعقدة، وليس أدل على هذا، من ذلك الكم الهائل من الأفكار، والكتابات، التي ظهرت في هذا الحقل المعرفي الإسلامي.

لقد خاضت السُّنة تجربتها الأولى في حضور نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، لا لتترك لنا فقط أحاديثاً وسنناً روّى بها رسولنا عقول الناس، بياناً وعلماً وهدياً، ولكن لتخلف لنا أثراً عظيماً من آثار الإسلام، وهو تنزيل القرآن إلى أرض الواقع، وتحويله إلى ثقافة اجتماعية أخلاقية وروحية، وسلوكية، وعمرانية. والعجيب حقاً أن تتم عملية التنزيل، في ظرف زمني وجيز، امتد إلى حوالي ثلاثة وعشرين عاماً، وهي حياة الرسول ﷺ بعد البعثة.

ثم خاضت السُّنة معركتها الثانية في وجود الصحابة الكرام، والتابعين الأبرار، وتابعي التابعين الأخيار، للتترك لنا تراثاً معرفياً سنياً، وحديثياً، ظهرت

من خلاله عبقرية العقل المسلم الاجتهادية، والمنهجية، والعقلية، فنشأت بذلك علوم رائعة، ومناهج كفاءة في هذا الحقل المعرفي الإسلامي « علوم السنة » . . وبعد هذا الزمن الطيب في حياة السُّنة النبوية، توالى العهود، ودخلت أمتنا العزيزة في مراحل الضعف والتخلف، ليس عن ركب الحضارة كما يقولون، ولكن عن مستوى القرآن والسنة، فحدث لها ما هو معلوم من واقعنا بالضرورة.

دعونا نقول بأن السُّنة النبوية في تطورها التاريخي مرت بقراءتين :

– القراءة النبوية، وتتماز بأنها كانت سلوكاً، وقيماً، وأخلاقاً، وواقعاً مجسداً وقرآناً، يمشي داخل مؤسسات المجتمع وثقافته . ويمكن تسميتها « بالقراءة عن طريق الوحي »، فقد كانت أقوالاً، وأفعالاً، وتقريرات كما يعبر عن ذلك علماء الاصول، ولكنها محكومة بمرجعية الوحي، ومعياريته.

– القراءة البشرية العلمائية: وأعني بها قراءة الصحابة، والتابعين وتابعي التابعين، وتابعيهم بإحسان، وتتماز بأنها معرفية وعلمية، أي أنها اشتغلت بالجانب النظري، والاستدلالي، والبناء الفكري للسنة، وصبها في كتابات، ومؤلفات مثل الموطآت، والمسانيد، والصحاح، والمدونات . . الخ أخذاً بعين الاعتبار الجانب المنهجي منها، وما أنتجته العملية التدوينية من مناهج، وعلوم مثل علم مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وعلم العلل والرجال، بالإضافة إلى استخدام مناهج التاريخ، ومناهج السير في الارض.

وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري

ماهي وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري الحديث ؟

يبدو والله أعلم أن هذا السؤال من أخطر الاسئلة التي تواجه حركة البناء

الحضاري الحديثة لأسباب منها :

- أن عملية البناء الحضاري المقصودة هنا، هي التي تدور في إطار المرجعية الإسلامية. وهذه الأخيرة تبني على الوحي الأعلى - قرآنا وسنة - ولهذا فمن اللازم ابتداء أن يتفاعل العقل المسلم، مع هذا الإطار المرجعي الأم، الذي بدونه تصبح عملية البناء الحضاري، لا علاقة لها بالمجتمع الإسلامي، وبالثقافة التوحيدية.

- إن عملية التعامل مع الوحي، تتم عن طريق مفتاح السنة النبوية المطهرة، فبالإضافة إلى كون السنة وحياً مبيناً للقرآن، وموضحاً له، وكاشفاً لأسراره، وسننه، وخيراته، وأحكامه، فهي كذلك مدخل مقتضي، لتحقيق الوعي على القرآن، وبدونها يتعذر التعامل الحقيقي، والصحيح معه.

فالتلازم بين البناء الحضاري، والسنة النبوية المطهرة، على جميع المستويات تلازم ابتدائي، بمعنى أنه لا يمكن الحديث عن البناء الحضاري، وإحداث تغيير اجتماعي، في واقع الناس النفسي، والاجتماعي، بمعزل عن السنة النبوية المطهرة؛ فهي الأساس الذي لا يمكن أن تقوم بدونها عملية تغييرية، تنتمي إلى الثقافة التوحيدية. كما أن الحديث عن السنة النبوية سيقتى نظرياً، وجذباً فردياً ما لم يتحول إلى قوة دأنامية، تحرك طاقات المجتمع، وتوجهها لممارسة عمليات البناء الحضاري، من أجل تحقيق مقاصد حدها المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم، ووضحتها السنة النبوية المطهرة، في ثنائيا توجيهاتها، وسننها المضطردة.

من سنن البناء الحضاري

فالاقتضاء الابتدائي في التركيب الإلهي للدعوة العالمية الإسلامية، وللرسالة

النبوية الخاتمة، استدعى التلازم المطلق، بين السنة النبوية المطهرة، والقرآن الكريم، من جهة، واستوجب التلازم المطلق، كذلك بين السنة النبوية، والبناء الحضاري، الذي غايته القصوى هي تحقيق مقاصد الشارع في الخلق من جهة أخرى (الإستخلاف والمحافظة على الكون). ومن هنا كانت رسالة الرسول ﷺ (السنة) مؤلفة بين بنائية القرآن الكريم، وغاية الخلق الكلية (كل البشر)، على المستوى النظري، ومُفاعلة بين وظيفة القرآن ورسالته، وبين البناء الاجتماعي للحياة الإنسانية، وواقعات الوجود البشري على المستوى العملي.. أعني أن السنة تؤدي دورين:

الأول : على الصعيد المفاهيمي الذي يساهم في توضيح، وكشف المرجعية الكبرى للناس، من خلال رؤية الوحي: للكون والحياة والإنسان.

والثاني: عملي توجيهي، يتمثل في ربط الحياة الإنسانية، والوقائع البشرية، بالأصل المرجعي، الذي هو (النظام التوحيدي) الكامل الشامل، الذي ختم على يد سيدنا محمد ﷺ.

فالسنة هي «الموحد» الواقعي بين خطاب الشارع الحكيم، ومقاصده، وبين حاجات الخلق، ورغباتهم في الهدى، وتحقيق مصالحهم (البناء الحضاري)، ومظهر هذا التوحيد والمفاعلة بين (الوحي) و(الخلق) في إطار العلاقة الموجودة بينهما (الاستخلاف) هو الحضارة الإسلامية، التي بناها الرسول ﷺ، وواصلتها أمته إلى ما شاء الله من الزمن، قبل أن تتطلب الظروف حديثاً جديداً عن بناء حضاري جديد. ولهذا فالحديث عن البناء الجديد، يقتضي بالضرورة المطلقة الحديث عن الموحد الأول، والمنشئ الأول للتجربة الحضارية الإسلامية، أعني (السنة النبوية المطهرة) كناظم، وضابط لحركة البناء الحضاري، من أجل تحقيق مقاصد الشريعة في الخلق، وإحداث التوازن الاجتماعي من جديد في الواقع الإنساني المعضل..

المنهج النبوي والعصر العالمي

فإذا كانت هذه هي رسالة السنة النبوية المطهرة، فكيف تقوم بهذه الوظيفة في ظل العصر العالمي المعيش؟

فعندما نطرح فكرة العصر العالمي، فإنما نعني بها مجمل التطورات العقلية، والمنهجية، والروحية، والسلوكية، التي ساهمت في نقل البشر من مرحلة تاريخية حضارية سابقة، إلى مرحلة تاريخية حضارية جديدة، والتي فرضت على البشر الدخول إلى العصر العالمي، بكل ما فيه من تطور صناعي، وتكنولوجي، وثقافي، وأخلاقي، ومنهجي، وبكل ما فيه من مشكلات خطيرة على الصعيد المفاهيمي، والمناهجي، والمعرفي، والتي ستؤثر في صيرورة البشرية فوق الكوكب الأرضي. ولهذا تظهر حتمية، وإلزامية التفكير في احتمالات الاستحالة على الصعيد الاجتماعي، والحضاري، وما سينجم عن ذلك من مواقف إنسانية، قد تضع البشر جميعاً في لحظة حرجة من تطورهم في (نقطة الاختيار الكلي) الذي لا يحتمل إلا وجهتين: إما سلامة البشرية، ونموها باتجاه الحق تبارك وتعالى، أو انهيارها، وتماديها على طريق الغي، والظلم، والصلف الذي سيؤدي إلى انتقام السنن الإلهية حتماً.

خصائص الواقع العالمي الراهن

من اللازم منهجياً في هذا العمل أن نقوم بمحاولة لتحديد خصائص الواقع العالمي الراهن، الذي يفترض أن تقوم فيه السنة النبوية بعملية توجيه كبرى، بهدف تحقيق تغيير حضاري أصيل، يساهم في إنجاز البناء الحضاري المنشود للبشرية كافة.

فمن الضروري أن نقوم بتحديد خصائص «الواقع العالمي المعاصر» في شقيه الإسلامي، وغير الإسلامي، لأن العجز عن القيام بهذا العمل سوف يؤثر في طبيعة الأفكار التي نريد إيصالها من خلال هذا الجهد المتواضع. فالربط المنهجي بين الرؤية التغييرية الإسلامية، ومنهجيتها في التوجيه، وبين الوعي على الواقع العالمي الراهن، أمر أساس وحاسم في نجاح الجهود الراهنة في حقل البناء الحضاري، بمعنى أنه سوف يكون من العسير علينا فهم «السنة النبوية، كمركب حضاري» والوصول إلى كشف نظامها الفكري، والتوجيهي لحركة المجتمع، دون إدراك موضوعي، لطبيعة العصر، وخصائصه. فهذا الوعي على الواقع هو الذي سنؤسس عليه منهجنا الأدائي المتصل بحياة الناس، التي يراد تنزيل الشرع الإلهي عليها. وأخذها بالخطاب الرباني، الذي جاء ليحقق مصالح البشر في الدارين.

فوعي الواقع القائم شرط من شروط توجيهه، والتأثير في حركته بما يتوافق وعقيدة المجتمع.

إننا لا نهدف هنا إلى بحث مفهوم الواقع المعاصر من الوجهة اللغوية، ولا المصطلحية، التي تشتغل بالمعنى الساكن للمفاهيم، ولكن سنحاول تحديد مضمون هذا الواقع، وخصائصه الملازمة له من وجهة نظر من يريد أن ينجز مشروعاً حضارياً في حقل اجتماعي، وثقافي مترامي الأطراف (كالامة الإسلامية مثلاً).

ملاحظة عن فهم الواقع

عندما يعاني الإنسان مازق تنزيل الأفكار إلى أرض الواقع في ظل وسط بشري معضل، يحس ساعتها بقيمة وعي الواقع، كشرط من شروط التنزيل الأساسية. فمراعاة واقع الناس لازمة من لوازم التطبيق الأحسن للشرعة الإسلامية، وقانون من قوانين البناء الحضاري المستقيم، وسنة من سنن الله في

خلقه، من أخلُّ بها فقد أخل بمصالح العباد، التي جاءت الشريعة لتثبيتها ، وتوضحها ، وتحافظ عليها، مع مراعاة ظاهرة تغير الواقع في الزمان والمكان، وهذا ما يتطلب الوعي المستمر عليه .

ففي دراسة أي واقع، يجب أن نؤكد على أن هناك أموراً إيجابية، يمكن الاستفادة منها في واقعها الأصلي، ومنها ما هو سلبي، يجب التخلص منه، وتغييره بما يتناسب والعيش في ظل النموذج الحياتي الإسلامي . والأمور السلبية والإيجابية، قد تختلط على الناس، فيصبح الزبد في مقام ما ينفع الناس، ويتحول في أذهانهم ما ينفعهم إلى زبد، يجب استئصاله ، وتكثر أضرار هذه المشكلات عندما يصاب المجتمع بفقر إلى الفهم، والوعي، والإبداع . وفي هذه المراحل التاريخية، تختل موازين العمل، ومقاييس الجهد النافع ، ويصبح التزييف والعبث، واللهو من التجارات الرابحة في حياة الخلق . فكم من خير عميم توارى تحت نظارة سياسي جاهل، أو صاحب عمامة متمشخ، أو دكتور صنعته الشهادة، أو داعية مصاب بالشذوذ الفكري، أو رجل يسعى إلى بناء مجده على حساب المستضعفين في الأرض .

فكل إنسان من الناس له نظارة يتصور بها الأشياء ، ويقوم بها الأمور . فالعلماء والرعاة، والرعية من أصحاب النظارات، ولكن النظارات في أوساط العلماء كثيرة، ومتنوعة . . ونفس الشيء في أوساط الرعاة، وكذا في أوساط الجماهير . فقد تجد في المستويات الثلاثة من يمتلكون نظارات صافية نقية خالصة لوجه الله، ومنهم من يمتلك نظارة مزيفة مشوبة مشوشة، ولأن كل نظارة من هذه النظارات تتصل في تشكيلها، وبنائها، ووظيفتها بما يدور في العقول من وعي وفهم، وقدرة، وما يعيش في القلوب من إيمان، وأشواق، ومبررات، وما تشع به الجوارح من خير، وعمل، وسلوك . . . وكذلك لأن الأمر متصل بما تفرزه حركة المجتمع من ثقافة، وتاريخ، ومناهج، فإننا في هذه الحالة مضطرين من

الوجهة المنهجية الصارمة إلى البحث في الأصول التكوينية للأشياء ، والأفكار .. وعليه في فهم الواقع، من العودة إلى الجذر التكويني للسلوك البشري ، وبالتالي الدخول إلى (مخابر صناعة الحضارة) حيث كهوف المنهج وشعابه المعقدة .

إن دراسة الواقع الإنساني، لم تصبح بعد علماً قائماً بذاته في عالمنا الإسلامي الحديث.. وأعنى بدراسة الواقع، اكتساب رؤية منهجية في دراسة الأحداث والمشكلات، أي دراسة حركة الخلق، ووجهتها الحضارية، ومعرفة مواقفهم من القضايا التي تواجههم، وإمكاناتهم الفكرية، والعقلية، والروحية، والسلوكية، والجسدية، ومعرفة أوضاعهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والתרورية، والعسكرية. وإدراك كل ما يتعلق بحياتهم الفردية، والجماعية، بشروط قيامها وعوامل انهيارها، وكذلك ما يتصل بعلاقاتهم مع الخالق سبحانه وتعالى، ومع بعضهم بعضاً، ومع الكون المحيط بهم.

ونحن هنا لا تهمننا الكثير من هذه العناصر، فغرضنا هو تحديد الخصائص الواقعية العامة، التي تتصف بها حياة أمتنا الإسلامية، وأمتنا الإنسانية، وبعبارة أخرى التعرف على طبيعة المرحلة الحضارية التي تجتازها البشرية، ومدى تأثير هذه الطبيعة في أي حركة تغييرية، تقوم اليوم في العالم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين.

من خصائص الواقع العالمي القائم

إن المتأمل المتعمق في واقعنا الإسلامي الراهن، سوف يلاحظ كل أصناف الفوضى، والتسيب، والانهيار. فالتجزئة المشينة للأمة، والتشتيت المخطط لطاقاتها، والقهر السياسي، والفقر، والحرمان، والجهل، والامية، والتخلف، والبطالة، والتبطل، والتبعية، والعلمانية، والعصبية القبلية، والنعرات الثقافية،

وحب الدنيا وكرهية الموت، والصراعات الداخلية، والإقليمية، والصراع الثقافي، والفكري، والمديونية، والهزيمة النفسية، والضعف الفكري . كل هذه الأمراض التي تطبع حياتنا، تؤثر بشكل مباشر في أي جهد تغيير، نريد أن نقوم به لصالح حفظ مصالح العباد، وحمايتهم من الظلم والخوف، والاستبداد.

إن مانصبوا إليه هنا ليس هو تشريح هذه الأمراض، ودراستها بشكل مخبري علمي، فهذا مجال آخر ، وإنما نسعى إلى تحديد الخصائص العامة للواقع البشري بمقدار ما يجلي الأفكار التي نعرضها، ولهذا فسوف نذكر بعض هذه الميزات الأساسية في هذه العناصر:

خاصية العالمية

هذه هي إحدى الخصائص الأساسية والمهمة، التي تطبع الواقع الإنساني القائم، ويبدو أن كل تغيير حضاري يتجاوزها سوف يبقى مراوفاً في مكانه مهما بدت لياقته في بعض مراحل السير، ونحن كأمة بحاجة إلى وعي هذه الفكرة بشكل عميق. لأن أصلها التكويني يمتد إلى طبيعة المذهبية الإسلامية في تشكيلها النهائي «القرآنية» . فختم النبوة معناه عالمية الحضارة الإسلامية، وثقافتها التوحيدية ، ومعناه كذلك «الظهور الحضاري» للدين الحق ، ولكن ما يلاحظ اليوم هو أن المسلم غافل عن هذه الحقائق الكونية الكبرى؛ وأن غيره من الأمم، والحضارات تطرح أفكارها في سوق الحضارة، وتروج لها بشكل فعال جداً، حتى أصبح ادعاء «عالمية الحضارة الغربية»، من حقائق التاريخ البشري المعاصر التي يروج لها حتى بعض أبناء الأمة. فالطرح الذي تقدمه الحضارة الغربية لفكرة عالمية الحضارة، لا يخدم بأي حال من الأحوال فكرة عالمية الحضارة، كما يريد الإسلام تقديمها للبشرية؛ بل تعاديها وتحاربها دون هوادة.

فنحن كأمة، نؤمن بفكرة العالمية للحضارة، من منظور الظهور الكلي للدين الحق، الذي سيحقق مصالح العباد في الدارين، كما أننا نعلم يقيناً بأن طرح فكرة العالمية - إسلامياً - هو البديل الحضاري الذي بمقدوره حل الازمة الإنسانية الراهنة، على جميع الأصعدة .

(لقد رفعت الحضارة الغربية طاقة الإنسان إلى مستوى غير مألوف، وعندما وصلت هذه الطاقة إلى درجتها تلك، قلبت كل حقائق التاريخ، وأدخلت فيه عنصر قوة، يطبعه بطابع الشمول، وبذا وجدت الشعوب جميعاً نفسها وكأنما تقلها سفينة واحدة إلى مصير واحد . فهي شيئاً فشيئاً بفضل التطورات الصناعية الحديثة، وبخاصة في الميدان الذري، بات عليها أن تتجاوز مجتمعة بعض المراحل الحاسمة وأن تعالج مشتركة بعض المراحل الجوهرية . وهكذا نرى أن تحليل المادة يتفق مع التجمع الإنساني، إذ لم تعد هناك جزيرة الفردوس التي يمكن للإنسان أن يعيش فيها منعزلاً عن تيارات الأحداث . لقد صنعت الحضارة الغربية عالماً يترابط فيه الناس ويتعرفون فيه على الخير والشر، وقد يؤثر عامل القوة في كلا الاتجاهين دون تمييز، كأنه قوة عمياء لم يتحدد توجيهها « ... » وهو بقلبه للأوضاع التي سبق أن خلقها ، لم يكف عن أن ينمي عجيبته الهائلة، حيث أوجد فيه جميع عناصر الازمة النفسية ، والزمنية الراهنة ، في الوقت الذي يفرض فيه جميع ظروف حلها « ... » فالظاهرة هي عالمية الحضارة الغربية، التي تطرد بدافع من قوتها الخاصة « » والعالمية في مجراها ليست طرفة تاريخية من مفاجآت التاريخ، وليست اتجاهًا عقلياً أو سياسياً، وإنما هي ظاهرة القرن العشرين^(١) .

لنحاول الرجوع بهذا التحديد إلى أصوله، إلى ما قبل هذا التاريخ، رغم أن

(١) فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر بانثونغ . مالك بن نبي ، ترجمة : عيد الصبوري شاهين ، السنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م ، دار الفكر - دمشق ، ص : ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ ، بتصرف خفيف .

هذه هي المرحلة التي بدأت تظهر فيها فكرة العالمية، كطرح مؤسسي اجتماعي .
فالعالمية التي نعيشها هي طور آخر من أطوار الوجود البشري، فوق الكوكب
الأرضي .. والواقع الراهن بطروفه، سوف يتيح لنا إخراج الفكرة إلى حيز الواقع
بعد أن دامت قروناً متطاولة في حيز القوة، تنتظر لحظات التاريخ الكبرى
كاللحظة التي تعيشها البشرية اليوم مثلاً .

فكرة العالمية وختم النبوة

في الحقيقة وكما ذكرت فيما سبق بأن فكرة عالمية الحضارة متصلة مباشرة
بفكرة « ختم النبوة »، ودلالته على الصعيد المنهجي، والفكري، والعملي، لفهم
المسلم لرسالته بصورة خاصة ، وفهمه لحركة العالم، ومآليته بشكل عام . فمن
الدلالات الأساسية لختم النبوة ما ذكره العلامة إقبال، رحمه الله :

(إن مولد الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي، وأن النبوة لتبلغ كمالها
الآخر ، في إدراكها العميق لاستحالة بقاء الإنسانية معتمدة إلى الأبد على
مقود تقاد منه ، وأن الإنسان لكي يحصل على معرفته بنفسه، ينبغي أن يترك
ليعتمد في النهاية على وسائله هو) (١) . ويقول الأستاذ جودت سعيد
- حفظه الله - : (يمكن النظر إلى ختم النبوة من جانب آخر على أنها فكرة تعلن
انتهاء الدورات الحضارية ... وبانتهاء النبوة، وختمها، انتهت الدورات،
وامسك الإنسان بسنن الحضارة ليجعلها مستمرة ... فمعنى ختم النبوة : ختم
الدورة الحضارية .. والميزة الأخرى لمحمد ﷺ أنه للناس كافة، وهذه هي عالمية
الحضارة، وانتهاء زمن الدورات، وإن كنا لانزال نعيش دورة الحضارة،
وتعدها، إلا أن إرهاصات زوالها بدأت تبرز لمن تأمل) (٢) .

(١) تجسيد التفكير النبوي في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: محمود عباس ، ط: ٢ ، السنة: ١٩٦٨م . ص: ١٤٤

(٢) اقرأ وريك الأكرم، ص : ٢٢٥-٢٢٦ .

• يخشى أن يؤدي الكلام على إطلاقه ، إلى التوهم بأن الإنسان ، بعقله الاستدلالي ، الذي أشار إقبال إلى
مواده بختم النبوة ، ويلوغ كمالها ، يؤدي إلى الاستغناء عن عطاء الوحي ، ليقيم العقل مقامه ، وهذا اتجاه
خطير، لابد من تقييده بمرجعية الوحي لرد أي التباس . (الناشر)

إن ختم النبوة إعلان رسمي على انطلاق عهد الجهاد الحضاري الطويل، وبداية عصر البحث عن البرهان الواقعي، والعمل على فكرة عالمية الإسلام، التي تقررت في عالم العقيدة الإسلامي كأساس من أسس الدعوة التوحيدية .

إننا في واقعنا الراهن نعيش معطيات العصر العالمي، ولكن يبدو أننا لم نفكر بعد، كما لم تفكر الحضارة الغربية بجد في موضوع العصر العالمي، وشروط العيش فيه : (فالحضارة أصبحت مع الثقافة الغربية، هدفًا مقصودًا، وعملاً شعورياً، وفناً، ووظيفة تتطلب ذكاءه، وإرادته وهو يرى فيها غاية الأرضية. هذه الذاتية الجديدة، قد وسعت أولاً حقل الحضارة نفسها، حين مدته من النطاق القومي، والعنصري إلى النطاق العالمي، والإنساني، ولكن الغرب حين حقق امتداد الحضارة في المكان، بفضل قوته الصناعية، قد أحدث تحولاً في طبيعتها التاريخية... إن منعطف التاريخ الحالي... يجتاز بالإنسانية المرحلة الثانية من تطورها، بعد التحول الأول، الذي دخلت به في التاريخ في نهاية العصر الحجري الجديد... وهذا التحول قد يغير توقعات التاريخ تغييراً تاماً بحيث لا يدع مجالاً لافتراض «الافول» إذ في التوقع الجديد لن يكون هناك أماناً سوى افتراض الكسوف الكلي، والنهائي الذي لا يمكن من أن تصاغ «نهضة»... وتلك هي نتيجة توحيد المشكلة الإنسانية... هذا التوحيد الذي أوصل مقدرة الإنسان إلى المستوى العالمي، وهو يتجلى في حياة كل شعب، وفي تشكيلاته السياسية، وفي ألوان نشاطه العقلي، والفني، والاجتماعي. فالمقاييس، وطرائق السلوك، والتفكير، لا تكف عن التقارب على محور طنجة - جاكارتا، ومحمور واشنطن - موسكو(١) .

من هذه التحديدات الأولية، تبدو لنا أهمية فكرة عالمية الحضارة كمشروع حضاري، يطلب منه أن ينقل البشرية إلى طور حياتي جديد على الصعيد العقلي والسلوكي .

(١) الأفريقية الآسيوية، من: ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ بتصرف خفيف .

خاصية العلمية

ومن الخصائص المميزة كذلك للواقع البشري الراهن، خاصية «العلمية» .. وأعني بها أن الحضارة المعاصرة، علمية، يقودها العلم، والعلماء، ولا تتحرك في مواقفها الكلية، والجزئية إلا إذا قدم الخبراء ، والمتخصصون الإشارة الخضراء . «فحضارة العلم» تعني الحضارة التي أصبح التوجيه فيها عن طريق العلم ثقافة، أي ميزة سلوكية تابعة لتشكيلها الثقافي . فالعلم مرسوم سلوكياً ، ويتدخل تلقائياً في كل شؤون الحياة والمجتمع . فالعلم هو القائد للحضارة .. وفي هذه الحالات، تموت الدروسات، ويضمحل الجهل، ويتراجع التكهن الخرص . وعندما يصبح التوجيه بين يدي العلم، تصبح للفكرة قيمة، ولصاحبها رسالة، يعيش من أجلها . وهذه الرسالة في كل الحالات خاضعة لعقيدة الإنسان، وفلسفته في الحياة .. وبشكل عام، تمثل العلمية الطاقة الخلاقة التي فتحت الخيرات المركوزة في البشر، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من الدقة، والإتقان، واستطاعوا أن يتحكموا في الكثير من سنن الله في الخلق . «فالعلمية» هي الضوء الخافت الذي ينساب بين دروب الجهل، ليتحول إلى نور ساطع ينير طريق السائرين في الكون إن تدبروا، وفقهوا، ووعوا ولكنها قد تتحول إلى مرض عضال تسقط الحضارات العملاقة، وذلك عندما تمسكها الأيدي التي لا تعرف قيمتها .!! تماماً كما يحدث هذه الايام عند أصحاب الحضارة المعاصرة .

خاصية العملية

العمل في الحقيقة هو محرك الطاقة الحيوية للبشر ، وإذا انتفى العمل انتفت معه الحضارة البشرية . فالعبادة عمل، وعمران الكون عمل، والتفكير عمل، وإنقاذ الخلق من الظلمات إلى النور عمل، والتعارف بين الناس عمل، والبحث

عن المعاش عمل، ونحن لا نقصد هنا هذه القيمة المطلقة للعمل، كشيء فطري تكويني في الخلق، وإنما نعني «بالعملية» ارتباط الفكر بساحات الأداء البشري المعضل، واتصال المعارف بالتجربة والتطبيق. فالواقع الراهن يؤمن بالحركة العملية، فهو لم يعد شغوفاً بالفلسفة النظرية، والعمل هو الذي يعطي للأفكار قيمتها، وإشعاعها، ويبرهن على عبقرية الجهد الإنساني الواقعية.

إن استحكام هذه الخاصية في الحياة العقلية، والثقافية للحضارة المعاصرة، وفي السلوك العام للإنسان، مكّنه من امتلاك المنطلق العملي الذي يجعله يربط الفكرة بالواقع، ويربط العمل بوسائله الكفأة بشكل فعال، ومؤثر. ويصل الكيفيات المنهجية بالغايات البشرية. لقد أصبح لكل جهد إنساني مقياس واقعي واضح يحكمه. فالعملية كذلك تعني (كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئاً بغير مقياس يستمد من واقع الوسط الاجتماعي، وما يشتمل عليه من إمكانات)^(١). كما تعني كذلك امتلاك (الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه.. بين سياسة ووسائلها.. بين ثقافة ومثلها.. بين فكرة وتحقيقها)^(٢).

خاصية التخصص

لقد كان لخاصيتي العلمية والعملية، دور بالغ الأثر في طبع الواقع العالمي الراهن بميزة التخصص الدقيق في كل شيء. فعلى صعيد المعرفة مثلاً تفرعت المعارف، وتخصصت بشكل لم يكن يتصوره «دور كايم»، وهو يقدم ملاحظاته في موضوع علم الاجتماع، فقد تعب كثيراً في موضوع

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، السنة:

١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص: ٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٩٦.

التسمية نفسه ، واليوم نجد هذا العلم متفرعاً إلى أكثر من سبعين فرعاً، كل واحد منها بحاجة إلى وقت كبير جداً لاستيعابه. لقد انتشر المنطق التخصصي في كل تفاصيل حياتنا العامة، والخاصة، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والتعليمية، والتربوية ، والإدارية . إنه فيما يتعلق بهذه الفكرة بالذات ، نتأسف كثيراً لما يحدث في عالمنا الإسلامي عندما نشاهد متخصصين مطلّقين يتكلمون في كل العلوم بلا علم ولا دراية، مازالت تراودهم فكرة الموسوعية التي قضى عليها عصر العالمية، والعلمية، والعملية.

خاصية الواقعية

نحن كثيراً ما نسمع في ثقافتنا الراهنة أصواتاً تذكرنا بعصر الفلسفة الخرافية المشؤومة؛ فنسمع بعضهم يقول: أنت لست واقعي، وأنت خيالي، وأنت فيلسوف!.. حالم. ١. تهيم في الفراغ، وتعيش في جزيرة حي بني يقظان. وإذا سألت لماذا؟ جاءك الجواب الذي يسقط كل الاعتبارات التي يمكنها أن تدخل في توجيه الواقع إلى الأحسن. فماذا تعني الواقعية في حياتنا المعاصرة؟ إنها باختصار شديد تعني: الحكمة في التعامل مع وقائع الحياة الإنسانية ، أي توجيه الأعمال بما يؤدي إلى نجاحها في إنجاز مهامها، بدون خسائر في الأوقات، والجهود، والطاقات.. تعني النزول إلى أرض الواقع.. إلى أعماقه الواقعية.. إدراكه في حالته القائمة، بدون زيادة ولا نقصان، ومعالجته انطلاقاً من طبيعته، وظروفه، ومعطيائه..

إن الواقعية في العقل الحضاري المعاصر، خاصية نابعة من ثقافته العامة، ومن تعامله السلوكي مع الأشياء. كما أنها الوعي التام، والفهم الشامل لشروط، وظروف، ووسائل، ومناهج، وأساليب أداء عمل معين. فهي إعطاء الوقت الكافي لإنضاج الأفكار، وفهم الأحداث، والمتابعة الواعية لحركة المجتمع،

والإدراك المستوعب لإمكاناته، ونقائصه، وقواه.

خاصية المنهجية

العمل إذا لم يكن خاضعاً لقواعد، وضوابط، ونواظم معيارية، ومعرفية، فإنه لا يسمى منهجياً . فهو هنا لا يخضع لمنظور استدلالي معين، ولنطق برهاني منظم، أي لا يصدر عن إطار مرجعي يحكمه، ويوجهه وفق أسس معينة، ولغاية محددة، وبوسيلة مشروعة.

فالمنهجية خاصة من خصائص الخطاب العالمي القائم. فهي وعي على كفاءات إنجاز عمل ما، وفهم لطريق الوصول إلى غرض مطلوب، وفق ترتيبات واضحة ومنظمة. والعقل الحديث ساهم بقسط وافر في تعميق القيمة المنهجية في السلوك الإنساني الراهن، رغم أن موضوع المنهجية كان موجوداً قبل هذا التاريخ بقرون متطاولة. فكل عمل لا يخضع لمنهجية استدلالية أثبتت صحتها سوف لن يجد مكانه في منطقنا العالمي القائم. وكل إقناع لا يصدر عن توجيه منهجي مؤسس، سوف يُرد، فعندما تنعدم الحركة المنهجية في العمل الإنساني يصاب بالعمى، وتظهر فيه الفوضى، وتتملكه الحيرة. فالمنهجية هي برنامج العمل، وخريطة السير، وروح التوجيه ومنطقه الذي يربطه بالواقع.

خاصية التقنية والتكنولوجية

صحيح أن التكنولوجيا والتقنية نتاج من منتوجات الوعي البشري في الحقل العلمي، والمعرفي، والعملي والمنهجي.. إلا أنها تمكنت من تحرير موقعها في عالم القرن العشرين كواحدة من خصائص الحضارة القائمة.

فالحياة البشرية اليوم، مطبوعة بطابع التقنية والتكنولوجيا، التي وحدت

القارات، وقلصت زمن الاتصال والتعامل ، ورفعت درجة الحوار الثقافي بين الحضارات، بشكل لم يكن يتصوره العقل الإنساني قبل هذا التاريخ . فقد حلت الآلة محل الجهد البشري، وأصبحت العلاقات الإنسانية متيسرة بوسائل، وأدوات بسيطة في تناول جميع البشر، وغزت التكنولوجيا الدقيقة عالم الناس .

فإذا كان ابن خلدون من قبل قد كتب مؤلفه التاريخي الضخم في أكثر من سبعة مجلدات، وإذا كان معاصرنا أرنولد توينبي قد أنجز عمله الضخم « دراسة للتاريخ » في ما يقرب من سبعة آلاف صفحة وقضي فيه أكثر من أربعين عاماً؛ فإن كتابة هذا الكم من المعارف أصبح اليوم ممكناً في جهاز بسيط يمكن للإنسان أن يحمله معه ، وهكذا دخلت التكنولوجيا في تفاصيل حياتنا الخاصة والعامة، ونقلتها إلى طور آخر من أطوار تعاملها مع الحياة والكون والناس ، وأخرجتها من طور قتل الأوقات، وتبديد الطاقات إلى مراحل الاقتصاد في الجهد والوقت، وإلى عالم الدقة ، والإتقان ، والجمال ، في العمل الإنساني .

فال اتصال السلبي واللاسلكي، والحاسوبات الإلكترونية، والدمغة الصناعية، وأجهزة الذكاء الاصطناعي، والأقمار الصناعية، والتقنيات الاتصالية الحديثة، والمراكب الفضائية، والتكنولوجيا العسكرية، والطبية، وكل الأدوات، والتقنية، والآليات التي نشاهدها في عالم الحضارة المعاصرة هي نتاج طبيعي « للمنطق التكنولوجي » و« للعقل التقني » الذي خلفته النزعة العالمية، والعلمية، والعملية، والتخصصية، والمنهجية في حياة الناس .

لقد أعطت (التكنولوجيا)^(١) الحديثة للعقل البشري فرصة التفاعل الإيجابي مع سنن الله في الكون والآنفس، وأمدته ببعض وسائل التسخير المادية التي تتطلب استعمالاً أكثر فاعلية لأجهزة التسخير المعنوية : السمع والبصر

(١) راجع : دراسة في البناء الحضاري ، « مجلة المسلم مع حضارة عصره » ، د : محمود محمد سفر ، كتاب الأمة ، رقم : ٢٦ ، ط : ١ ، السنة : ١٤٠٩ هـ .

والفؤاد والقلب ..

والتكنولوجيا اليوم تسير بخطى متسارعة إلى عالم جديد أسماه مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق « زيجنيو بريجنسكي » بـ « العصر التكتروني » .

المنهج النبوي وقدرته على البناء

ففي ظل هذا الواقع البشري الخطير الذي يستدعي التفكير الجدي في شروط، وموجبات العيش في العصر العالمي الذي سيمتد في مستقبل الحضارة البشرية بشكل واسع، وخاصة في القرن الواحد والعشرين، يتثبت في الأذهان تساؤل مهم هو :

كيف يساهم المنهج النبوي في حل الإشكالات العالمية الراهنة؟ وبعبارة أخرى: ما هي المساهمة التي سيقدمها المنهج النبوي في مجال البناء الحضاري الجديد؟

فالمعلوم بالضرورة لدى قطاع ضخم من البشرية في الوقت الراهن أن الحياة الإنسانية موسومة بمسحة الشيطان . فالظلم الحضاري هو المنطق الذي يحكم حضارة البشر القائمة، في نفس الوقت الذي يبدو فيه أفق الحضارة، وصانعيها، ضيقاً، ولايحتمل توسيعه - على المستوى المنظور - بشكل يعطي للناس فرصة العيش المشترك في العصر العالمي . فقدرة العقل البشري الراهنة غير قادرة على فهم مقتضيات الانتقال، وموجبات الاستمرار الحضاري، على أساس فطري عادل، يستوعب كل الاتجاهات البشرية القائمة، دون هدر الحاجات الناس العقيدية، والعقلية، مع إلزامية الوعي، بأن البشرية لن يصلح حالها ما لم تعد إلى (فطرة الله) التي ركبها سبحانه وتعالى في الانفس، والآفاق، وفي الكتاب .

إن هذا النوع من الاستيعاب قد أنجزته من قبل (السنة النبوية) بشكل لا يتوهم فيه أحد تغييره إلى الأفضل منه مطلقاً . وهنا تظهر لنا الأهمية القصوى في مجال دراسة المنهج النبوي كمركب حضاري ساهم من قبل في بناء حضارة التوازن الفطري من خلال المفاعلة بين الوحي الأعلى - قرآناً وسنة - وبين حاجة الخلق ، والغاية من وجودهم الأرضي (الاستخلاف والمحافظة على الكون) .

فالمنهج النبوي ليس فقط خطاباً أخلاقياً - (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) - بل هو حركة وعي عقلية، ومنهجية، وروحية، وسلوكية لهذا الخطاب الأخلاقي على الصعيد الاجتماعي، ودرسته في إطار تجربة بناء نموذج حضاري مستوعب للمطلق وللنسبي - أي - مركب على أساس وعي متطلبات الزمان والمكان . لهذا كان (النظام التوحيدي) الأخير « القرآن » نموذجاً عالمياً مبعوثاً لكافة الخلق ، ولجميع البشر .

ونحن هنا نريد أن نبحث عن ظاهرة المنهج النبوي في هذا المستوى من الوعي، الذي ساهم في تركيب حضارة، بدءاً من تركيب إنسان، وثقافة، ومجتمع، وأمة، في ضوء مذهبية توحيدية، إلهية المصدر، ومن أجل غاية شاءت إرادة الله أن تكون لصالح الإنسان في حياته الدنيا والآخرة .

من أجل قراءة أخرى للسنة

وبعبارة أخرى نريد أن نقوم بقراءة جديدة للسنة النبوية المطهرة تنطلق من قراءتين سابقتين :

- قراءة الرسول ﷺ الأخلاقية، والسلوكية القاصدة إلى وضع أسس البناء الحضاري العالمي، الذي أصبح مصدراً أساسياً لفهم القرآن، وتنزيله إلى أرض الواقع (قراءة الوحي) .

- وقراءة بشرية علمائية تمثلت في البناء النظري للنموذج النبوي، وتدوينه، وتسجيله في كتب السنة، والحديث، والفقه، والأصول، والعقيدة، والتاريخ، والجغرافيا، والسياسة الشرعية.. إلخ (قراءة بالعقل). مع العلم بأن القراءة الثانية مستخلصة من التفاعل بين العقل الإسلامي والقراءة الأولى (قراءة الرسول ﷺ)، وذلك في ضوء المذهبية التوحيدية. وهذا معناه أن غياب القراءة الأولى، يعني أن أي قراءة لاحقة إلى قيام الساعة مرفوضة في حياة الأمة، وأن أي بناء حضاري لا يقوم عليها فهو رد، وغير مقبول مهما كانت نتائجه. فالقراءة النبوية للوحي، وتنزيله إلى أرض الواقع حجة على كل التطور العقلي، والمنهجي الذي وصلته، وستصله البشرية في مستقبل أيامها، وبعبارة أكثر دقة: أن كل الإنتاج العقلي، والفكري الراهن، مطلوب للمثول بين يدي معيار الوحي الإلهي، الذي تمثل السنة النبوية المطهرة إطاره العملي، الذي أدى فيه الرسول ﷺ رسالة البلاغ المبين، كما أمره الله سبحانه وتعالى .

فالقراءة الجديدة محظوظة بشكل عظيم لأنها تقف على خبرة الجيل النبوي الأول، الذي كان في مرحلة التأسيس للنموذج الحضاري التوحيدي، كما تقف على تجربة الجيل الإسلامي الثاني (عصر التدوين ثم العصور التي تلتها وساهمت في مواجهة الحملات الشرسة ضد السنة النبوية) الذي كان في جهاد متواصل للحفاظ على الحضارة الإسلامية، ووراثتها بشكل غير مخل بغاياتها، وحقائقها التاريخية.

فهذه القراءة التي ظهرت منذ بؤادر الصحوة الإسلامية الحديثة مطالبة بالوعي العميق على القراءتين السابقتين، بالإضافة إلى وعيها على أمرين مهمين:

- طبيعة القراءة الجديدة للسنة النبوية المطهرة، باعتبارها مصدراً لبناء حضاري جديد، بكل ما يتطلبه هذا العمل من فهم للعصر العالمي، وشروط العيش

فيه، والتعامل معه من أجل تغييره لينسجم مع خطاب الشارع الحكيم،
ويحقق مقاصده العليا في الخلق.

— منهج، وكيفيات، ومستويات هذه القراءة على الصعيدين النظري والعملي.
فهذان هما العملان الحاسمان اللذان يستحقان العناية الكافية من قبل حركة
التغيير الإسلامي. إذ عليها أن تثبت فيهما بشكل منهجي. وعندما يتم هذا
التلاحم، والتفاعل بين العقل الإسلامي، والسنة النبوية المطهرة في ضوء المعيار
التوحيدي، فستظهر للناس القدرة المذهلة للمنهج النبوي في تركيب حضارة
جديدة انطلاقاً من تغيير الإنسان، والثقافة، والمجتمع، وإعادة ضبط حركة
هذه العناصر الأساسية في البناء الحضاري.

فالمنهج النبوي سوف لن يفهم بالشكل المطلوب، ما لم يقرأ كقوانين
اجتماعية، وسنن تاريخية، ومسالك أخلاقية، حكمت حركة التغيير الحضاري
الإسلامي الأول الذي أنجز من خلاله الرسول ﷺ بناءً حضارياً شامخاً، وحقق به
عملية (أسلمة حضارية شاملة) للمجتمع الجاهلي، ومكنه من تحرير مكانه في
عالم الحضارات. أعني أن المنهج النبوي نفسه يمثل إطاراً — ساحة تاريخية
تطبيقية — خصباً لدراسة السنن الإلهية الحاكمة للجهد البشري. ولهذا فتطبيق
(منهج السير في الأرض)^(١) في دراسته، مجدٍ جداً، لأنه سيتم عن طريق
منهجيات (النظر) التي تسعى إلى كشف سنن الهداية الربانية، وقوانين الفطرة
الإلهية التي فطر عليها الناس. فالمنهج النبوي، ساحة للتعامل مع عالم الأسباب،
وعالم سنن العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف، التي ستوصل الناس إلى
تحقيق غاياتهم الدنيوية المتمثلة في (الاستخلاف والمحافظة على الكون) ..

(١) انظر كتابنا: التغيير الحضاري ومنهج السير في الكون «مخطوط»، وأقرأ وريك الأكرم، للأستاذ جودت سعيد.

المنهج النبوي يحدد المأزق العالمي الراهن

إن المنهج النبوي الذي اعتبرناه مدخلاً أساسياً لاي بناء حضاري، يقوم على أساس (النظام التوحيدي القرآني) ويساهم في تحديد المفتاح المدخلي للبناء الحضاري الجديد . إذ من المعروف في علم الاجتماع التغييرى : أن حل أي مشكلة تواجه المجتمع، مهما كان نوعها (ثقافية، أو تاريخية، أو حضارية) مشروط بفقّه هذه المشكلة في تركيبها الواقعي، وتشكيلها الاجتماعي، أي كما هي في حياة الناس، دون زيادة ولا نقصان، وهذا التحديد، لابد أن يخضع كما هو معروف كذلك لمنهج علمي أثبت صحته، ولخطوات تحليلية منظمة، تقوم على الملاحظة، والافتراض، والتجريب، والوصول؛ أي استخدام المنهج الاستقرائي، والمنهج الاستنباطي، بغرض الوصول إلى كشف علل الأشياء، والأسباب القابعة وراء وجودها، وفهم قوانين التعامل معها، وعلاجها . وهذا الأمر يتطلب منا أن نبحث في المنهج النبوي، كسبيل لكشف سنن الهداية والترشيد . وهذا الأمر لن يتم لنا في الحقيقة إلا باستقراء كلي لنصوص السنة النبوية، وتحقيق هذه النصوص على صعيد المنهج التاريخي، أي وفق (منهج السير في الأرض والنظر في سنن الهداية الربانية) كما أمر المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم . ولتعذر هذا العمل الضخم في مثل هذه البحوث الفردية، سوف نحاول تقديم نموذج تحليلي لنص نبوي، نبين من خلاله الطريقة المقصودة في التحليل، والتي سنقوم بتطبيقها على الكثير من النصوص النبوية في المستقبل بحول الله وقوته .

قال رسول الله ﷺ :

« يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .. قالوا :
أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « لا ؛ بل أنتم كثير ولكنكم غثاء

كفشاء السيل ، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن». قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت» (١).

إن هذا الحديث النبوي الشريف، يعتبر من المداخل الأساسية التي يمكنها أن تعيننا على التحديد الصحيح، والدقيق لنقطة الانطلاق في التغيير الحضاري الراهن للعالم. فللهديث منطقية منهجية خاصة في تفسير الظاهرة الاجتماعية. فقد تجاوز المراحل التمهيدية، لما يسمونه البحث العلمي، ثم تخطى مرحلة التجربة، وتوصل إلى استخراج القانون، الذي يحكم الظاهرة الإنسانية. وهذا التوصل ليس ضرباً من التكهّن الخرس، بل وعي مستوعب في عالم الأسباب، وفهم مستنير للسنن الإلهية، واستخدام ناجح للمنهج الذي يشكل وعياً تاريخياً مستقبلياً، ينتج عن إدراك عميق للنفوس البشرية، وللحركة الاجتماعية عموماً.

عرض عام لموضوعات الحديث النبوي :

هذا الحديث يشتمل على قضايا، بعضها يتصل بمجتمعنا الإسلامي، وبعضها الآخر، متعلق بغيره من المجتمعات. كما يمثل في جوهره قمة سامقة من قسم الوعي التاريخي على سنن الله في الخلق. لنحاول التعرف على بعض جوانبه التي تهم بحثنا هذا:

أولاً: فهو يحدثنا عن أم متنوعة، سوف تتكالب على أمتنا - وهذا هو واقعنا اليوم - وهذا التداعي يكون في سياق التدافع الاجتماعي بين النموذج الإسلامي والنماذج الأرضية الأخرى - الغرب واليهود - .

ثانياً: ويصف لنا طبيعة هذا التداعي على هذه الأمة، التي تدين بدين (الحق والحقيقة) ، ويشبهه كتداعي الأكلة إلى قصعتها ، فهذا يدمر عالم

(١) رواه أبو داود (صحيح أبي داود للكباني) .

أفكارها ، وذلك ينسف عالم أشخاصها، وذلك يبدد عالم أشيائها.

ثالثاً : ثم يضعنا أمام حوار صادق بين المجتمع الإسلامي الوليد، الذي كان في أحسن ظروف انسجامه، وفاعليته الاجتماعية في ذلك الوقت، وبين النبي عليه الصلاة والسلام كمرجعية توجيهية ، وتبينية للخطاب الإلهي . إذ نجد المجتمع يستفسر عن سبب هذه الفاجعة الحضارية، التي توشك أن تدرك مجتمعاً ناشئاً. ثم يقدم هذا المجتمع افتراضاً احتمالياً - الصحابة - محاولاً تفسير الظاهرة التي يتحدث عنها رسول الله ﷺ قائلاً : «أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ وكأنه يريد أن يرجع المسألة بأكملها إلى عالم الكم، وبالضبط إلى (عالم الأشخاص). ولكن النبي عليه الصلاة والسلام، يرد القضية إلى مسارها الحقيقي، بوحي سنني عميق، بعيداً عن عالم الكم قائلاً: «بل أنتم كثير». ثم يصف هذه الكثرة بوصف يتزع عنها الفاعلية النفسية، والاجتماعية قائلاً: «ولكنكم غشاء كغشاء السيل».. وهذه الحالة في الحقيقة، هي أقصى حالة يعيشها مجتمع إنساني معين. فمليار من البشر لا يستطيعون توفير شروط حياتهم واستمرارهم الحضاري ، ويصبحون لقمة سائغة توجهها مجتمعات سرطانية، تعشش اليوم في قلبها النابض - السرطان اليهودي - وهذا كله لأنهم غشاء. ووضعية الغشائية، من الأمراض النفسية الاجتماعية، التي إذا حلت بثقافة مجتمع ما، أهلكتها، وحولتها إلى مجرد كيان شكلي مهلهل؛ كالثقافة الإسلامية في عصور الانحطاط مثلاً .

رابعاً : ثم بعد هذا يقدم الرسول ﷺ العلة الحقيقية للظاهرة المرضية مرجعاً أياها إلى مصدرين أساسيين هما :

- التحولات الجارية في نفسية الأعداء، أي المجتمعات ، والثقافات التي تعادي الإسلام قديماً وحديثاً (الغرب واليهود) والتي سعت وتسعى إلى إنهاء الوجود الحضاري للإسلام كمعامل حاسم، وأساس في إحداث التوازن

الكوني - اجتماعياً - ، وهذه التحولات جعلت من هذه النفسيات تكتسب مناعة، وقدرة على مواجهة قوى الامة ، والعمل للفتك بها «ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم» .

- التغيرات الجارية في نفسية الامة (فرداً ومجتمعاً) بحيث أصيبت هذه النفسية (بمركب الوهن) الذي أرجعه النبي عليه الصلاة والسلام إلى فاجعة العصور والدهور ، ومعضلة النفوس ، والعقول ، وآفة الحضارات ، والثقافات وهي (حب الدنيا وكرهية الموت) .

فالنبي عليه الصلاة والسلام أعاد العلة الحقيقية في الحالتين إلى عالم النفوس وإن - صح التعبير - إلى عالم الأفكار ، كبديل عن عالم الأشخاص على ما رأى المجتمع الإسلامي . وبالضبط في فكرة الوهن ، التي لها علاقة مباشرة مع أجهزة العمل الصالح في الإنسان : العقل والقلب والجوارح . فالعقول جمدها علمها ، والقلوب فتر إيمانها ، والجوارح تعثر عملها . وكما هو معلوم فإن : العلم والإيمان والعمل ، هم الزاد الدائم للحضارة .

خامساً : ويبدو كذلك بأن الحديث لم يربط تشكل مركب الوهن ، بفتره زمنية معينة ، ولكنه أعادها إلى جهود أجيال (الوهن الثقافي) والتخلف الحضاري ، لتساهم بإرادتها ، وتوجيهها ، في تشكيل هذا المركب داخل نفسية الفرد ، والمجتمع ، وثقافتها على حد سواء . وبواسطة قوانين (التوارث الاجتماعي) للمركبات المرضية في (الحقل الثقافي) ، نُقل المرض بشكل تراكمي إلى أن وصل إلى (بدايات العصر العالمي) الذي نعيشه اليوم ، عباد الثلث الاخير من القرن العشرين ، وهنا دخلت الإنسانية في منعطف من منعطفات صيرورتها فوق الارض ، فتطلب منها الأمر ، نظرة مستوعبة في مشكلاتها ، وأزماتها . . والحديث النبوي يقدم وعياً عميقاً على هذه القضية كما أشرنا سابقاً .

إن (الحديث النبوي) (١) الشريف ، سنة من سنن الله في الخلق ، ورؤية صائبة في المآزق العالمي الراهن الذي تشكل من :

– التحول النفسي الذي تم في نفسية صانعي الحضارة الحديثة ، بما في ذلك الجانب العقلي، والفكري، والمنهجي، والعمراني، والتكنولوجي، والثقافي، والسياسي، والاجتماعي، والترهوي .

– التحول النفسي الذي تم في نفسية الإنسان المسلم بما في ذلك جوانب الفعالية الثقافية الثلاثة : العقل، والقلب، والجوارح .

المنهج النبوي وتوجيه جهود النهوض

فالحديث يقدم المساعدة الأولية اللازمة لبناء حضارة العصر العالمي، وذلك بتحديدته للمشكلة الإنسانية المعيشة، ولكن يبدو أن عالم الاجتماع المسلم المشتغل بحقل النهضة – إن وجد أصلاً – كعلم جماعي – لم يعر بعد الاهتمام المطلوب للمنهج النبوي، باعتباره مركباً حضارياً للطاقة الإنسانية، كما لم يتذوق بعد قيمة هذا الحديث النموذجي الذي نحن بصدد تحليله .

فقد أتاح لنا الحديث فرصة عظيمة، واختصر لنا زمناً طويلاً، قد نقضي فيه كامة، ويقضي فيه غيرنا من الحضارة القائمة قروناً متطاولة بعلومهم الإنسانية، والاجتماعية، كيما يصلوا إلى تحقيق النتيجة المذهلة التي توصل إليها الحديث، منذ أربعة عشرة قرناً . فقد حدد لنا رسول الإنسانية ﷺ موقع المرض العضال الذي خلف حضارتنا، وهو بصدد إسقاط الحضارة الغربية، وقدم لنا منهجاً قاعدياً لتركيب حضاري جديد، يؤهل الإنسانية للدخول إلى العصر العالمي . فهذا الحديث يخدم منهجية عالم التاريخ، وعالم النفس، وعالم الاجتماع، والمفكر المسلم، لانه يوفر عنهم تكاليف تأسيس منهجية لدراسة أزمة الأمة الحضارية على حد تعبير المرحوم مالك بن نبي .

(١) راجع المقدمة القيمة التي كتبها الأستاذ عمر هبيد حسنة في كتاب الأمة رقم ٢٦ .

إن في الحديث تعبير صادق وصحيح عن تغيير اجتماعي ونفسي عميق، أصاب النفسية البشرية عموماً (الإسلامية وغير الإسلامية) .. فعلى صعيد النفسية الإسلامية، سارت الازمة على طريق (حب الدنيا وكرهية الموت) . وعلى صعيد النفسية غير الإسلامية، نمت العقلية الاستعمارية التي تسعى هذه الأيام إلى نفي الإسلام من العالم تحت تسميات، ومسميات متنوعة مثل (السلام .. والحضارة الغربية العالمية .. والاصولية الإسلامية ..) .

فالحديث يرى بأن المجتمع الإسلامي غشاء، لأنه فقد الشعور برسالته الاجتماعية، التي تأسست على (حب الموت وكرهية الدنيا من أجل الدنيا) كما وضع بأن المسلم أصبح من المخلدين للواقع الأرضي الفاني . حيث هبط الكثير من الناس ليعيشوا راضين في فوضى عالم الأشياء . فمعظم مواقف المجتمع الإسلامي أصبحت تدور حول محور (حب الدنيا وكرهية الموت) وذلك هو جوهر (الازمة الحضارية) التي تمر بها البشرية، بما فيها مجتمعنا الإسلامي، الذي أصيب بالوهن (فلقد كان هذا الحديث ضرباً من التنبؤ والاستحضار: استحضار حالة العالم الإسلامي، بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، أي عندما لا يعود مجتمعاً، بل مجرد تجمعات لا هدف لها كقضاء السيل . ولا ريب أن جيلنا الحاضر يدرك الحديث، أكثر مما يدركه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه يصف في مضمونه العالم المستعمر ، والعالم القابل للاستعمار ، الأمر الذي تعرضنا فيه لتجربة شخصية) (١) .

من هنا تتضح لنا أهمية هذا المدخل الذي ساعدنا على تشكيل الجملة السابقة من الملاحظات، وفتح لنا طريق التأمل الأعرق . فهذه الطبيعية الدقيقة للازمة، هي المفتاح، لأي تحول في مجتمعنا الإسلامي الراهن، وفي مجتمعنا البشري القائم . فكل فلسفة للتغيير الحضاري ، تتجاوز هذا الوعي تعد جهلاً ،

(١) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - مالك بن نبي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر .

دمشق ، السنة : ١٩٨١م ، ص : ٣٦

وانتشاراً في هذا الميدان الخطير، وخير دليل على صحة هذا الزعم، هو كل المشاريع النهضوية ، التي قامت في عالمنا الإسلامي المعاصر، وكل الامراض التي رافقت نمو الوجهتين الرأسمالية والشيوعية في العالم .

لقد تجاوزت السنة النبوية في وعيها للآزمة الإنسانية الراهنة، العلوم الحديثة بقرون من الوعي، والجهد المخبري الذي سيثبت في النهاية أن حل الآزمة الإنسانية وقاھيلها، لتدخل العصر العالمي، مشروط بعلمها (أنه الحق ولهذا قال المولى تبارك وتعالى : ﴿ سَرُّهُمْ أَيْنَمَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَتَّبِعَنَّ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

فحل الآزمة ينطلق إذن من عالم النفوس ، ويمتد في عالم المجتمع، ثم ينتشر في عالم الثقافة، وبعدها يدخل إلى عالم التاريخ، ليتحول فيما بعد إلى منهج للسير في الأرض من أجل الاهتداء إلى السنن الإلهية . قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِينَ فِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء : ٢٦) .

وهذه هي رسالة السنة النبوية في حقل البناء الحضاري، حيث تبين منهج كشف السنن، وكيفيات تركيبها لتصبح ثقافة اجتماعية حية، تتجسد فيها قيم الوحي، ومعاييره ، ونظمه الحياتية المتنوعة، والشاملة لحياة الناس الدنيوية، والآخروية .

منطقية السنة النبوية في التعامل مع الظواهر الاجتماعية

إن منطق السنة في التعامل مع الظواهر الاجتماعية منطق متميز، أخذ قوته الاستدلالية، ومنهجه البرهاني من منهج القرآن الكريم، الذي يمتلك حق النظر في الماضي، والحاضر، والمستقبل، وفي كل غيب علمه عند الله سبحانه وتعالى، ويتحكم في هذه الحركة بشكل مستوعب، وصحيح لا ريب فيه مطلقاً . فهو

صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة. وعلى هذا فالسنة النبوية مثلاً عندما نتحدث عن (قصص الأنبياء)، فهي تكشف لنا عن تجارب حضارية عميقة وعن تركيب جوهري للحقيقة الدينية، مع حوادث الكون، والحياة. ومن هنا يكون لهذا القصص النبوي، حق كشف السنن، وتوجيه الناس إلى سنن الهداية. فعندما تعطي السنة النبوية حكماً حضارياً، وتاريخياً مضطرباً، فإنما تأخذ حجتها من الموقف القرآني الكلي، وتعتمد فيما وصلت إليه على استقرار كلي للمنطق القرآني في دراسته للظاهرة التاريخية.. وهذا مثال لذلك، فقد ذكر رسول الله ﷺ:

(ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم قط، إلا وكثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان، وإلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق، إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر بالعهد، إلا سلط الله عليهم العدو)^(١).

لنحاول فهم الحديث في منظور منهجي معين. ولتسهيل التحليل نقسم الحديث إلى موضوعات:

- ظهور الغلول (مرض اجتماعي) في مجتمع يؤدي إلى (أزمة نفسية)، من مظاهرها: (إلقاء الرعب في القلوب)، وهذا يؤدي بدوره إلى نتائج حاسمة في غير صالح المجتمع، الذي يمارس هذه الأعمال. فالسبب مرض اجتماعي، والنتيجة أزمة نفسية، تجعل حياة الناس في قلق، وفوضى، وخوف، وهذا صحيح، ومعيش في حياتنا.

- فشو الزنا (مرض أخلاقي) في مجتمع يؤدي إلى (نتيجة كونية تدخل في إطار السنن التكوينية وتساهم في هلاك النسل) وهي حدوث الموت، ومصادق هذا الحديث في هذه الأيام هو مرض «الإيدز».

(١) الموطأ، موقفاً على ابن عباس.. قال ابن عبد البر: رويناه متصلاً عنه، ومثله لا يقال رأياً.

– نقص المكيال والميزان (مرض اقتصادي) يؤدي إلى (أزمة معاشية) هي انقطاع الرزق، وهذا معناه هلاك الأموال.

– الحكم بغير الحق (مرض سياسي) يؤدي إلى (أزمة أخلاقية) هي التقاتل، والتنازع، وهذا سيؤثر في بقاء النسل، ويساهم في فشو الدم الذي يخرب به العمران البشري.

– والخطر بالعهد (مرض أخلاقي ونفسي) يؤدي إلى (أزمة حرية) وتقاتل وتسلط الأعداء، وبالتالي الخوف، وضياح الأمن، وتعثر الاقتصاد، وانتهيار البلاد، وهلاك مصالح العباد، من حفظ للدين، وللعقل، وللنفس، وللنسل، وللأموال.

هذه الثنائيات التي يذكرها الحديث، والتي تمثل سبباً ونتيجة، ليست مذكورة على سبيل الحصر، وإنما مجرد أمثلة بسيطة للسنن، التي تحكم في الظاهرة الاجتماعية في مستواها الأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والتربوي، والعسكري، والعمراني، والنفسي. أي أنه يمس كل حياة الناس، ويرتب نتائج على أكثر من علم، ومنهج وصعيد.

فالحديث يقدم منطقاً معيناً في فهم الحركة التاريخية، والاجتماعية، وبأمثلة تلمس بعض جوانب الحياة الإنسانية، والروح التي تسري في أحشاء الحديث هي الروح السننية. بمعنى أنه مبني على أسباب، وقوانين، وسنن مضطردة، لا تتخلف في أي زمان ولا مكان، في حالة توفر الشروط المحددة لكل قضية من القضايا المطروحة. ومن هذا المنطق بالذات، استطاع النبي عليه الصلاة والسلام، بحكمته، وإحاطته بالأمور، أن يخترق حدود الزمان، والمكان، ليقرر مسألة (الغناء) التي تعيشها أمتنا اليوم. فهو ليس بالضرورة تكهن خرس، وليس كذلك رجم بالغيب، وإنما تبصر، وفهم. فهو وعي للسنن الإلهية، ولقوانين الحركة التاريخية، وهذا هو المنطق الكلي الذي جاءت السنة النبوية لتثبيته في حياة الناس، وتنبههم عليه، بوحي، ومن خلال تجارب عملية، ومواقف بشرية،

صنعت أحداث قسم من التاريخ العالمي، هو تاريخ الحضارة الإسلامية ، بكل ما تحمله من خصائص متميزة .

فلو تساءلنا مثلاً عن سبب فشو الغلول، والزنى، ونقص المكيال والميزان، والحكم بغير الحق، والختر بالعهد... إلخ، لوجدنا السنة النبوية المطهرة ترسم لنا وعياً آخر، على صعيد آخر من الأسباب ، والمنطق الاستدلالي ربما يهدينا هذا الحديث إليها: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه : قال رسول الله ﷺ :
(لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه) (١) .

فالحسد، والتناجش، والتباغض، والتدابير.. أمراض نفسية، وأخلاقية، تؤدي إلى سلوكيات، وأعمال للجوارح، تؤثر في الحركة الاجتماعية بأكملها.. والبيع على بيع الاخ، والظلم، والخذلان، والكذب، والتحقيق.. إلخ أمراض أخرى تصدر عن نفس مريضة، وكل هذه الظواهر السقيمة هي التي تصنع الازمة داخل المجتمع بعد أن تكون قد كونتها في النفوس، وبالتالي يحدث الانهيار الاجتماعي . والرسول ﷺ يشير إلى مركز الداء العضال، منبهاً إلى مصدره، ومؤشراً على موقعه الحقيقي (التقوى ههنا) هناك في عالم القلب، والفؤاد، والعقل، والنفس . ولهذا نجد في نفس الحديث، يضع حدوداً أخلاقية لحفظ القلوب، وتزويدها بالضابط الروحي، والناظم الأخلاقي، الذي يلهمها القدرة على الانسجام مع سنن الله في الخلق، (كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه) ..

(١) رواه مسلم .

ولا يتوقف النبي ﷺ عند هذا الحد، بل يرسم منهاج الحل للمشكلات، ويعطي التدابير العملية لذلك، وهذا ما نستخلصه من حديث سنني آخر: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.. ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة.. ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة.. والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه.. ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة.. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون الكتاب ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده.. ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١)).

في هذا الحديث سنن، وقوانين، وتوجيهات تسعى إلى تأسيس القاعدة الأخلاقية للسلوك البشري، وما التوجيهات، والطرق التي قدمها الرسول ﷺ في هذا الحديث، بغرض تحقيق الترقى الروحي والسلوكي، إلا مظاهر للغاية الأخلاقية الاجتماعية، التي يقصدها الرسول ﷺ. لقد ربط كل فعل بجزء إلهي لا نظير له. فكما ربط تنفيس الكربة في الدنيا، بجزء إلهي، هو تنفسيها في الآخرة — وما أعظمه من أمل يعيش من أجله المسلم — فقد ربط التيسير على المعسر، بتيسير الله في الدنيا والآخرة. وهكذا تواصل منطقية السنة في تقديم نظامها البرهاني للحركة التاريخية، ورسم وعيها في شكل نظام منهجي أخلاقي، يمكن تطبيقه في أرض الواقع، وفي حياة الناس، وماغيتها إلا العمل من أجل المحافظة على مقاصد الشارع في الخلق، كما أمر المولى تبارك وتعالى.

(١) رواه مسلم .

فالأغاية القصوى للسنة، والتي أخذتها من القرآن الكريم، هي السعي إلى (إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً)^(١).

إن هذا العرض العام لبعض الأحاديث، مكنا على الأقل من اكتشاف المدخل الأولي، الذي يمكن أن نستعمله، من أجل فهم منطقية السنة، ونظامها البرهاني، ومنهجها الاستدلالي، ورؤيتها المنظمة للظواهر الإنسانية، وتعاملها مع عالم الأسباب. فعمق هذه الأحاديث، يعبر عن وعي الرسول ﷺ لسنن الله في الخلق. وعليه فالسنة النبوية المطهرة، ساحة خصبة للسنة الإلهية العاملة في الذكر، والأنفس، والكون.. واكتشافها، وفهمها، وتسخيرها، مطلب شرعي، ولازمة استخلافية، لا تقوم بدونها حياة إنسانية مستقيمة على الطريقة.

السنة النبوية مصدر للثقافة الإسلامية

ولكي نتعامل بشكل جيد، ونافع، مع السنة النبوية المطهرة باعتبارها مركباً للفعل الحضاري الإسلامي، الذي يراد له أن يعمل على حفظ مقاصد الشارع في الخلق، يجب أن نلاحظ بأن هناك مستويات للتعامل، كما أن هناك منهجيات، وكيفيات، سوف نقوم بعرض عام لها، ضمن هذا العنصر الذي عقدناه لبحث منطقية السنة في تعاملها مع الظاهرة الاجتماعية.

إن السنة النبوية مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية. وهذا يؤدي إلى البحث في مستويات الفعل الثقافي، وكيف يتركب في الواقع البشري المعضل. فلثقافة وجهان: الوجه النظري ويمثل البناء التصوري، والمفاهيمي، والمعرفي،

(١) المواقف، ص: ١٦٨.

والمنهجي للظاهرة الثقافية . والوجه العملي ، ويمثل التشكيل الاجتماعي، والسلوكي للظاهرة. فدراسة أي ثقافة بشرية لابد أن تمر على المستويين السابقين: مستوى الإطار المرجعي، ومستوى الإطار السلوكي. ودراسة أي منهما بمعزل عن الآخر، سوف يجزئ الظاهرة الثقافية، ويفصل شقيها المتلازمين. فكل السلوكيات، والمواقف العملية، والبنى المادية لثقافة ما، إنما يرجع إلى الجذر النظري والمرجعي ، الذي يطبع عالم الثقافة بطابعه، وبنائه الخاص ، المستمد أصلاً من تصورات المجتمع، ومواقفه الكونية، والحياتية.

وما دامت السنة النبوية مصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية، فإنها تؤثر في الجانبين معا. وعليه فمن الضروري دراستها من الجانبين كذلك:

– السنة النبوية كمصدر للبناء الثقافي النظري والمرجعي (عالم العقيدة والأخلاق الإسلامية)^(١).

– والسنة النبوية كمصدر للنظام السلوكي لدى الأشخاص (عالم السلوك وعالم العمران).

في المستوي الأول، تظهر لنا مجالات التعامل مع الظاهرة الثقافية التي منها:

- مجال التصور الكوني .
- مجال المفاهيم .
- مجال المنهجية .
- مجال النظرية المعرفية .
- مجال القوانين الثقافية .
- مجال القوانين الأخلاقية .

(١) راجع السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة، ندوة عقدت بعمان في ١٥-١٩ ذي القعدة ١٤٠٩هـ الموافق لـ ١٩-٢٢/٢/١٩٨٩م . ج ١ : ٢ . وكيف نتعامل مع السنة . للشيخ يوسف القرضاوي.

- مجال المشروع الاجتماعي .

- ومجال التنظير ، وضوابطه ..

أما في المستوي الثاني للظاهرة الثقافية ، هناك كذلك مجالات للتعامل
نذكر منها :

- مجال الواقع الإنساني .

- مجال السلوك البشري .

- مجال الجهد البشري .

- مجال المعاش والعمران البشري .

- ومجال التاريخ، والسير في الأرض .

والسنة النبوية تدخل في توجيه الجانبين معاً، حتى ينسجما مع
الخطاب الإلهي، وينضبطا مع القانون الفطري العام الذي جاءت الشريعة لتدلل
عليه، وتعلم بأنه صيغة الله التي يجب أن يعود إليها البشر في صناعة حياتهم،
وتسخير سنن الله من أجل تحقيق السعادة في الدارين .

إن فهمنا للسنة النبوية بهذه الشمولية، وإدراك قدرتها الفائقة على التوجيه
في مختلف الأصعدة السابقة، سوف يتيح لنا فرصة التعرف على الخير الإلهي
الذي أودعه سبحانه وتعالى في جهد نبيه ﷺ كما سيطلعنا على القدرة الذاتية
للعوي النبوي المضمن في سنته، التي تمثل الإطار العملي لمقاصد الشارع الحكيم
في الخلق، والحركة تنزيل الخطاب الرباني في صورة موقف اجتماعي، كان من
محصلته بناء الإنسان، والمجتمع، والثقافة الإسلامية المعبرة عن حضارة الإسلام
في الأرض .

المنهج النبوي ومفهوم التغيير الحضاري

سوف لا نسعى إلى البحث عن مفهوم للتغيير الاجتماعي من وجهة نظر العلوم الاجتماعية، والسلوكية الحديثة، لسبب واحد، هو أنها ليست في العمر الحضاري الذي تعيشه أمتنا عموماً، والحركة الإسلامية التغييرية خصوصاً. فالموقع العملي للأحداث التي تمر بها الأمة داخلياً، وخارجياً، مختلف عما يدور في الذهنية الحضارية المعاصرة، ولما تسعى إلى تحقيقه من الأهداف، تبعاً لتصورها الكوني. أعني أن هذه العلوم، وبشكل خاص علم اجتماع التغيير والحضارة، والثقافة، تعيش في عمر حضاري آخر، يتصل بجدلية الحضارة القائمة، وصورورتها التاريخية الذاتية، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تعميمها، مالم تصبح معارفها معبرة عن القانون الفطري، الذي يحكم الخلق.

ومراعاة اختلاف الأعمار الحضارية، لازمة منهجية في مجال التغيير الاجتماعي، وقد أشار إليها ابن خلدون بذكاء في قوله: (اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور، خلقاً، من أحوال ذلك الطور، لا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع لمزاج الحال الذي هو فيه)^(١). وابن خلدون هنا، يوضح قاعدة مهمة في مستوى الدولة، يمكننا أن نعممها لتصبح حاكمة للسلوك الحضاري، وهذا ما أكدته مالك بن نبي رحمه الله، بقوة في قوله: (وعليه فلا يجوز لأحد وضع الحلول والمناهج، مغفلاً مكانة أمته، بل عليه أن تتسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته، مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته.. أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعاً للجهد، ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد

(١) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن محمد بن خلدون، تحقيق: د. عبد الواحد والفي، دار نهضة مصر العربية للطباعة والنشر، ط ٢، ج ٢، ص ٥٥٢ - ٥٥٤، بتصرف خفيف.

في هذا الميدان، جهل وانتحار.. وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية، ناتجة عن فكرة معينة، تؤرخ ميلادها عمليات التطور الاجتماعي، في حدود الدورة الحضارية التي ندرسها.. فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها، في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية^(١). ونفس الموقف نجده عند المفكر السيلاني المسلم البروفيسور عبد المجيد مكين، الذي يرى أنه : (في ظل الطرح الإسلامي، يبدو لنا معيار الوحي، هو المدخل الوحيد لدراسة مشكلات وقضايا الفكر الإسلامي؛ إذ لا تجدي الطريقة العلمية الحديثة شيئاً، في استكناه خبايا الظواهر الإسلامية، ومغازيها الحقيقية، وأبعادها الجوهرية، التي لا يمكن فهمها إلا في ضوء معيار الوحي. فالظواهر الإسلامية لا يمكن إدراكها بمعزل عن منهاج الوحي، وسياقه الذاتي. فالطريقة العلمية الحديثة تبقى دوماً مفتقرة إلى عنصر أساسي، هو مخ البحث وروحه؛ وهو من هبات معيار الوحي للباحث المسلم، حيث لن يجد هذا العقل ذاته، ووعيه، إلا ضمن هذا الإطار^(٢).

فعندماؤكد على هذه القضية، فتأكيدي لا ينفي التعامل مع المناهج الاجتماعية السائدة في الحقل التغييري، وإنما يتطلب الأمر دائماً أن نستعمل إمكاناتنا العقلية، ومنهجيتنا الذاتية كيما نتجاوز بعض المراحل الخطيرة.. والمنعطف الحضاري الراهن، الذي نعيشه، منعطف من المنعطفات، التي تحتاج إلى تجاوز أصيل، لأننا نعيش في مرحلة التأسيس لعمل نهضوي جديد، سوف يشمر في مستقبل الأمة، وسترى الأجيال اللاحقة عمل أجدادها الذي قاموا فأعلنوا ضرورة العودة إلى مصدر الطاقة الخلاقة، الذي أشع من قبل على الإنسانية، عندما فتح لها طريق التفكير العلمي، الذي يخضع لقواعد منهجية

(١) شروط النهضة، ص: ٤٧، ٤٨.

(٢) معيار الوحي في الفكر الإسلامي، البروفيسور عبد المجيد مكين، ندوة عقدت في اليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان، طوكيو، ٢٠ - ٢٠ مارس ١٩٨٠م باللغة الإنجليزية.

ومعيارية أخلاقية ، قصد بها الشارع الحكيم تحقيق مقاصد الخلق في الدارين .

التغيير الحضاري في ضوء وعي المنهج النبوي

إذا لابد لنا أن نبحث عن معيار آخر، نعرف في ضوئه التغيير الحضاري، ونحدد مضامينه. ولا يمكن ابتداءً أن نعثر على هذا المعيار إلا في إطار (النظام التوحيدي) أعني في معيار الوحي الإلهي، الذي يشتمل على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

فتحديد مضمون للتغيير الحضاري، لابد أن يتم من خلال استقراء لمقاصد «الوعي التغييري في المنهج النبوي»، وفهم عميق على المنهج التغييري الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام في عملية البناء الاجتماعي الأولى، أي في (عملية الإسلامية الحضارية الشاملة)^(١) الأولى التي حقق بها مرتبة (الأمة) للجماعة الإسلامية المؤسسة للحضارة التوحيدية .

طبيعة التغيير الإسلامي

إننا كلما تعمقنا في فهم الأشياء، وفق نموذج الإيمان التوحيدي، كلما أحسنا بضخامة مسؤوليتنا أمام الله، ثم أمام أنفسنا، وأمام التاريخ، وأدركنا خطورة واجباتنا أمام الواقع الإنساني المعضل، وخاصة في مراحلہ الراهنة، وأطواره المتوقعة. فموقفنا الحضاري اليوم ما زال غامضاً، وبشكل ملح في ميدان قدرتنا على وعي مناهج التعامل مع خطاب الله تبارك وتعالى، وفقه ضرورات استيعابه العملية، أي على المستوى الاجتماعي كمشروع حضاري. وسوف لن يتحقق لنا وعي رسالي اجتماعي، إذا لم ندرك موقفنا الجماعي (كامة) إزاء

(١) راجع كتابنا ، الإسلامية الحضارية الشاملة - مقدمات في المنهج - مخطوط .

موضوع وجودنا الحقيقي في هذا العالم الأرضي . أعنى موضوع (الاستخلاف) وتبعاته على صعيد العبودية والعمران . وهذا الأمر لن يتم لنا على الوجه المرغوب، إذا لم نفهم موجبات تحصيل « التغيير الاجتماعي » في واقع أمتنا المتردي . فالتغيير اليوم من متطلبات استمرارية الأمة، ومن شروط استعدادتها لهيئتها الحضارية، وتمكينها للناس، كيما يسترجعوا ما فقدوا من فطرتهم الخيرة . والحديث عن التغيير هنا لا ينسحب إلى ما رسخه العقل الغربي منذ أربعة قرون؛ القرون التي ولدت فوضى العالم الغربي المنهجية والثقافية الراهنة، ولكن التغيير المنشود هنا هو ذلك الجهد الإنساني، الذي يتيح للناس فرصة توفير موجبات « الوراثة الحضارية » ويعينهم على السير السُنني في الكون . فهو تغيير عالمي، علمي، عملي، سيتجه بالإنسانية من « العهد الحضاري » إلى « الطور الاستخلافي »^(١) الذي سيعبر عن الفعالية الكونية للتوحيد من الوجهة الاجتماعية، ويفسر المشروع الحضاري للإسلام من الوجهتين النفسية والثقافية، كما سيعلن عن إفلاس المنطق البشري الخاضع لسلطان المستكبرين، ويخلصه من نزعة : « أتعبدون ما تنحتون » ويمده بالقدرة على فهم قيمة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ إذ بين القراءة باسم ما ينحتون، والقراءة باسم ربك، فرق كالفرق الموجود بين الكفر والإيمان، والباطل والحق .

(١) راجع كتابنا ، الإسلامية المضاربة الشاملة - مقدمات في المنهج - مخطوطة .

الفصل الثالث

المنهج النبوي كمركب حضاري

فرغنا فيما سبق، من الحديث عن بعض الافكار المتعلقة بالجانب النظري لعملية التغيير، في ضوء المنهج النبوي، وبقي لنا في هذا الفصل أن نقدم تفسيراً نفسياً ثقافياً، واجتماعياً تربوياً، لدور المنهج النبوي في تركيب حضارة، وتوليد أمة في التاريخ هي (الامة الإسلامية).

ففي كل عمل تغييرى، أو توليدى لثقافة حضارية، لابد من فلسفة تغييرية، أو «توليدية» تقوم بتركيب عناصر الاجتماع البشرى، لتنتج منها وحدة تاريخية تمثل في جوهرها «المجتمع الوليد»، الذي سيسعى إلى تحقيق رسالة جماعة من الناس، في ظرف زمني معين، استجابة لمذهبية كونية معينة، وبوسائل معينة، ولغاية معينة.

مشكلة توجيه العملية التغييرية

الدارسون لميلاد مجتمع، كحدث تاريخي، والمتبعون لتلك اللحظات الحية التي تهيم لنشوء اجتماع بشري رسالي، صادر عن عقيدة تغييرية معينة، تحمل في أحشائها مشروعاً اجتماعياً تغييرياً، يحتاجون في الحقيقة إلى فهم بعض القضايا المتعلقة بجملة من الترتيبات الأولية، ذات الصلة بفلسفة التغيير، ومنهجيته. فانطلاق أي تغيير اجتماعي، مشروط ببعض المرجبات الأساسية، التي تمثل في جوهرها «تحدي» واقعي لحركة التغيير، وعلى رأسها «القيادة التغييرية» التي تحمل «همّ» توجيه العملية التغييرية، بكل ما تحمله هذه المهمة من صعوبات، وابتلاءات متنوعة المصادر، ومختلفة الأشكال، ومتباينة الشدة

والقوة. فالعملية تستدعي وعياً معيناً، نطلق عليه تسمية «الوعي الانطلاقي» الذي يحتاج إلى نظرية في «التوجيه الانطلاقي» وأعني به (جملة الافكار، والأعمال، والإجراءات، والخطوات المتعلقة بالإجابة عن هذه التساؤلات: مامضمون النموذج الجديد، الذي ننتمي إليه؟ وماذا نريد من خلاله؟ وكيف نحقق ما نريده؟ وما هي الوسائل المطلوبة لذلك؟ وكيف نتعامل مع الوضع القائم، الذي نريد تغييره؟ وبأي منهجية نعالج قضاياها؟ فهذه المجموعة من الاستفسارات، بحاجة إلى مخطط، وبرنامج يحدد كل عنصر من عناصرها، ويقدم له الإجابات النظرية، والعملية الكفيلة بحل إشكالاته، وتحقيق متطلباته.

إن التوجيه في لحظات إنطلاق العملية التغييرية، يختلف حتماً عن التوجيه الذي سيأتي بعد إنجاز هذه الخطوة، بحيث تطرح فيما بعد، أنواع أخرى من التوجيه منها: « توجيه المحافظة » على ما حققته الحركة التغييرية من منجزات على مختلف الأصعدة التغييرية، ومنها « التحدي الاستيعابي » الذي يقوم بحل ما يواجه الحركة داخلياً وخارجياً من سلوكيات ومواقف، قد تغير مسارها عن مسالكه الصحيحة، ومنها « التوجيه الاستمراري » الذي يهدف إلى دفع الحركة لتستمر في خط سيرها الأصيل، وتدوم في حركتها التغييرية، مهما كانت التحديات .. ومنها « التوجيه التقويمي » الذي يقوم بعمليات التقويم اللازمة، وللأشخاص، والأشياء، والافكار، في المنعطقات المختلفة للعملية التغييرية .. ومنها « توجيه التوريث للتغيير » بمعنى التفكير في مناهج، وكيفيات، ووسائل توريث الرسالة التغييرية بين الأجيال المختلفة، كيما تواصل الحركة فعلها التغييري دونما انقطاع، وترد على الأصول .. ومنها « توجيه تنمية الوعي مع حركة التغيير » وفيها يطلب تجنب تخلف الوعي التغييري عن هموم المجتمع، ومتطلبات المرحلة، وضرورات الزمان والمكان .. إلخ. فكل هذه الأنواع من التوجيه وغيرها بحاجة إلى وعي تام، من قبل القيادة التغييرية على الأقل، كيما تتمكن من

خوض معركة البناء، والتغيير بكفاءة.

فالتوجيه إذن مشكلة من المشكلات الأساسية في أي عمل تغييري، غايته بناء مجتمع على أصول رؤية كونية معينة.

فلسفة البدء والتوجيه الانطلاقي

التوجيه الذي يلزم القيادة التغيرية في لحظات الانطلاق، يعتبر من أقسى التحديات في المجال «المنهجي»، لأن حركة «التحديات» للواقع القائم، ستسعى إلى مخاطبته بنوع جديد من الواجبات والأفكار، التي تختلف كثيراً أو قليلاً عما ألفه من أوضاع؛ وفي القرآن تعبير عميق عن هذا النوع من التحدي، الذي تواجهه المجتمعات القائمة، من قبل قوى التغيير الجديدة، فيكون جوابها ما تعبر عنه هذه الآية بعمق:

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (الزخرف: ٢٢).

فهذا النوع من الإجماس، والسلوك المضاد لحركة التجديد، إنما مرده إلى النفسية الأثرية، والمقتدية بغير وعي، والمحافظة على الوضع القائم الذي ألفته، وتحول عندها إلى ثقافة أبائية مستحكمة. ومن هنا تكون الحركة التغيرية كمن يريد إيقاف أنفاس المجتمع القائم، وقبض روحه القديمة، ولهذا فالمجتمع القائم، يرد بعنف على هذا السلوك، «والمجتمع الجاهلي» الذي عاصر النبي ﷺ خير دليل لهذا النوع من السلوك.

ولكي يكون التوجيه الانطلاقي متماشياً مع قوانين البناء الحضاري، فإن القيادة التغيرية مطالبة بمواجهة، وتوجيه أول عمل على طريق التغيير الاجتماعي وهو: (التحديد الدقيق، والصحيح لموقع المرض، والأزمة القائمة في كل مستوياتها) وعليه فمشكلة أي حركة تغيرية تلك المتصلة بالتاريخ التكويني

لها، هي امتلاك القدرة الكافية على التحديد الإيجابي لموقع، ونوعية المرض، الذي يراد استهدافه بالعلاج؛ إذ الأمراض تختلف، وتتنوع بشكل كبير. فمريض السرطان مثلاً يختلف عن مريض السل، أو فقر الدم على الصعيد البيولوجي، ومريض الثقافة، يختلف تماماً عن مريض السياسة، أو الاقتصاد، على الصعيد العقلي. وهكذا فالتحديد مطلوب ولازم، لانه بهذا العمل الاساسي الاولي تنبني فلسفة الانطلاق في التغيير، ومناهجه، وأهدافه، ووسائله، وطبيعته. والعجز عن أداء هذا العمل المفصلي، سيؤدي حتماً إلى تضييع الجهود و«تبيدها» خارج دوائر التغيير المطلوب، وربما «تحريفها» عن مسارها الحقيقي، وهذا ما حدث مثلاً مع الثورة الفرنسية، التي استأثرت بها جماعة على حساب الفلسفة الانطلاقية، التي قامت الحركة لتحقيقها، ونفس الامر تقريباً حدث للثورة الإسلامية التحريرية في الجزائر.

فأول نقطة استفهام كبرى تواجه القيادة إذن، في الطور الأول من أطوار التغيير الاجتماعي، هي تقديم الجواب الصحيح، والواضح المعالم، والذي تضبط به مشكلة المجتمع ضبطاً محكماً، بحيث تعرف طاقاته، وإمكاناته، وقواه المختلفة، وتناقضاته المتنوعة، ونقاط الضعف والقوة فيه، وتدرك مداخل استجابات أفراد، ومفاتيح التعامل مع عقائدهم، وطبائعهم، وعوائدهم، ومواقفهم التي درجوا عليها. والقيادة التغييرية، عندما تقوم بهذا العمل، ليس فقط من أجل التوجيه الخارجي للمجتمع، ولكن وبشكل ملح من أجل التنظيم الذاتي لطاقاتها، وإمكاناتها، وتوجيه مشكلاتها، وحل معضلاتها، وترتيب قواها للمواجهة، والمراجعة، والإقدام، والإحجام..

إن فلسفة البدء في التغيير، وكل ما يتعلق بها من شروط، ومتطلبات، تقوم أصلاً على هذا «التحديد» وتعتمده في صحتها وخطئها. فلا يمكن وضع برنامج ناجح للتوجيه الانطلاقي في مختلف مراحله ومستوياته بدون هذا الوعي

على المشكلة، وامتداداتها التاريخية، والثقافية، والاجتماعية، والسلوكية، والمنهجية..

المغزى الثقافي لميلاد الجماعة التغييرية

إن ميلاد الجماعة في التاريخ، يعني من جهة، ظهور فكرة جديدة، داخل حركة المجتمع، تكون مسنودة في كل الحالات بقيادة تغييرية، ويعني من جهة أخرى، بداية ظهور حركة وجود جديد، ينزع إلى تحدي الوضع القائم، ويسير بشكل معين، لتحقيق غاياته، ومضامين عقيدته، من الناحية الواقعية. بمعنى أن الحركة الجديدة، سوف تؤدي إلى «توليد نموذج تربوي»، لبناء إنسان جديد، يتبنى الفكرة الجديدة، ويعمل من أجل تحقيقها في حياة الناس. وهذا مما سيؤدي إلى وضع نواة بناء اجتماع بشري، يتميز بخصائص ثقافية معينة، مازالت في حيز القوة. فميلاد الجماعة في التاريخ، هو عنوان على بداية دورة حضارية، ذات نزوع عقائدي، مخالف لما هو موجود في لحظات ميلادها. فهذه الجماعة تقوم، وتحرك، لأنها تشعر بضرورة، وأهمية، وإلزامية حركتها، وذلك بغرض تغيير شرائط واقع، لم يعد قادراً على تقديم دوافع العيش لأفرادها، ومؤسساته، وأفكاره المتقادمة، التي تحتاج إلى تجديد، كيما يرتفع وعيها إلى مستوى الأحداث، التي يمر بها «الوعي الجماعي» للمجتمع في صلاته الداخلية والخارجية. ومصيبة «تخلف الوعي»، عن فهم ومعايشة وقائع حركة العالم، من الإصابات المنهجية، التي تعيشها كثير من المجتمعات المعاصرة، والتي منها المجتمع الإسلامي الراهن.

إن ميلاد الجماعة من الوجهة الثقافية، دليل على ظهور منهج جديد للسلوك الاجتماعي، وبرز اتجاه فكري، يحمل قيماً تهدف إلى إعادة بناء المجتمع القائم، وطبعه بطابع آخر، لِمَا يتحول بعدُ إلى نظام ثقافي مُركَّب للسلوك، والنشاط

الاجتماعي . فعندما يصبح ثقافة اجتماعية فذلك إعلان، على أن الجماعة قد بدأت رسالتها، ودخلت بذلك إلى ساحة « العمل الحضاري »، وفي هذه الحالة تكون القيادة التغييرية، مطالبة بالتنزيل المستديم لمضمون عقيدتها، ووجهتها الحياتية إلى عالم النفوس أولاً، ثم إلى عالم المجتمع، الذي ينقله بدوره إلى عالم الثقافة، التي تقوم بتغذية جنين الحضارة، وتمده بلوازم النماء، والنمو، والنضج، والاستمرار . فهذا هو ميلاد الجماعة في التاريخ (ولكن عندما نتحدث عن ميلاد معين، فإننا نعرفه ضمناً « كحدث » يسجل ظهور شكل من أشكال الحياة المشتركة كما يسجل نقطة انطلاق لحركة التغيير، التي تتعرض لها الحياة، ويظهر هذا الشكل في صورة نظام جديد للعلاقات بين جماعة معينة .. الجماعة التي تغير دائماً خصائصها، بإنتاج وسائل التغيير، مع علمها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير^(١) . فهذا النظام من العلاقات، هو الذي يشكل المغزى الثقافي للجماعة، التي تريد إنجاز عملية التغيير . « فالتوليد الجماعي المشترك للتاريخ » ليس عملاً عفوياً، بمقدار ما هو جهد خاضع لسنن البناء الحضاري، التي تحكم مقاييس السلوك، داخل عالم الأفكار، والأشخاص، والأشياء . إذ (العمل التاريخي بالضرورة من صنع الأشخاص، والأفكار، والأشياء، جميعاً، ومعنى هذا أنه لا يمكن، أن يتم عمل تاريخي إذا لم تتوفر صلات ضرورية داخل هذه العوالم الثلاثة، لتربط أجزائها في نطاقها الخاص، وبين هذه العوالم، لتشكل كيائها العام من أجل عمل مشترك ... وهذا الشرط يستلزم كنتيجة منطقية وجود عالم رابع هو شبكة العلاقات الاجتماعية^(٢) . ونحن نريد أن ندرس المغزى الثقافي لميلاد الجماعة التغييرية في هذا المستوى، وذلك باستيعاء النموذج النبوي، موضوع هذه الدراسة .

(١) ميلاد مجتمع ، ص : ١٤ - ١٥ بتمصرف خفيف .

(٢) المرجع نفسه ، ص : ١٦ .

الترشيد النبوي ونموذج التغيير الرسالي

كما أسلفنا القول : فإن أول عمل تؤديه « القيادة التغييرية » على طريق نفي « الخبث الحضاري » هو تحديد موقع المرض الاجتماعي، باعتباره لازمة منهجية في علم التغيير الحضاري .

ومن هنا كان أول عمل أنجزته القيادة النبوية بدقة بارعة، وإيجابية كاملة، وبترشيد واعٍ، هو إدراك طبيعة المشكلة، التي كانت تعيش في النفسية الجاهلية، وفي أعماق العالم الثقافي المعاصر للرسول ﷺ . لقد أدركها عليه الصلاة والسلام بشكل مستوعب، استوفى شروط التحديد المنهجي العميق؛ وهذا الأمر يتبدى لنا بجلاء في المواقف، والسلوكيات، التي كان يتخذها النبي في سياق ترشيده للعملية التغييرية، وتعامله مع النفسيات، والعقليات، والثقافات، والمشكلات المطروحة عليه يومياً . لقد فهم عليه الصلاة والسلام مشكلة المجتمع المنهك عقيدياً، وثقافياً، وأخلاقياً، وأديباً، وسلوكياً . . ففي أعماق الواقع الجاهلي الذي كان مخرباً من الوجهة العقائدية – مما سمح بانتشار عبادة الاوثان، والأصنام، والمعبودات الأرضية المتنوعة « إثنوية، ثالثية، تعددية » – ومنهاراً من الناحية الاجتماعية، والثقافية، التي فتحت الطريق لظهور الزنى، واللغو، وشرب الخمر، وإتساء المحرمات، ووأد البنات، والرق، والعبودية، كما أنه متحلل من الناحية السياسية التي جسدت « العقلية الفرعونية »، ومختل من الناحية الاقتصادية التي كرس « الثقافة القارونية » . ففي ظل هذا الوضع المتأزم، كان الرسول ﷺ يمارس عمليات الترشيد للعملية التغييرية، ويتحرك بوعي لترسيخ معالم النموذج التغييري الحضاري الإسلامي .

المنهج النبوي والنظرة الكلية للمشكلة

لقد قام النبي عليه الصلاة والسلام بمعاينة المريض الجاهلي، وتشخيص أسقامه على مستويات متعددة، نركز في هذه الدراسة على مستويين:

- المستوى الكوني، أي مستوى الرؤية الكونية؛
- والمستوى الاجتماعي، أي مستوى المشروع الاجتماعي.

أولاً : الرؤية الكونية

لقد حدد النبي عليه الصلاة والسلام، أزمة «إنسان ما قبل الإسلام» في مستواها الكوني عن طريق الوعي القرآني، وأرجعها إلى «مشكلة غياب الرؤية الكونية الصحيحة» لقضايا الإنسان، والكون، والحياة، وموضوع كل واحد منها وغاياته، ووظائفه.

فلم يكن عليه الصلاة والسلام، ليضع مكان المرض أعراضه، ولا مكان الأعراض أسبابها، ولا مكان الأسباب آثارها، ولم يكن ليغير الواقع الاجتماعي المخرب، قبل تغيير واقع أسبق منه منهجياً هو «الواقع النفسي».. ولم يكن ليغير الواقع النفسي، قبل امتلاك نموذج تربوي للتغيير، يستقيه من «مذهبية كونية».

فالنبي عليه الصلاة والسلام يتحرك في وسط بشري، ولكنه موجه بتعاليم الوحي الأعلى، الذي دوى صوته من لحظات «اقرأ» العالمية التي نشرت صوت الرسالة الخاتمة. فتلك هي اللحظات التي طبعت وعي النبي ﷺ للأشياء، وحددت له وجهة التغيير، ومنهجيته. كما صاغت فهمه للحوادث والأفكار، وشيدت إدراكه للسنن الإلهية، وفتحت له سبيل الرشاد، والهداية. ومن هنا كانت حركته الترشيدية، متصفة بالخصائص الثلاث، التي أشرنا إليها في مدخل

هذه الدراسة: الوعي المقاصدي، والوعي البلاغي، والوعي السنني. ففي سياق فهمه لطبيعة المرض على المستوى الكوني مثلاً، رأى بأن المرض عقائدي متصل بأزمة غياب الرؤية الكونية الصحيحة، التي تهدد نشاط الناس، وتريهم الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتسلك بطاقتهم على طريق مشروع حضاري، يخدم غاية تنفعهم في دنياهم وأخراهم.

فطبيعة الازمة كونية، وتصورية، وهي نتاج لافتقاد النموذج الحياتي السليم، والصحيح، الذي يشكل للناس شرعة، ومنهاجاً، يحدد لهم معالم طريق الاستخلاف، ويرسم لهم أبعاد المذهبية التوحيدية، في مستوياتها الاربعة: الخالق سبحانه وتعالى، والإنسان، والكون، والحياة.

فهذا الغياب للرؤية الكونية، هو الذي أنتج «إنسان الفراغ الكوني»، الذي لا يملك أجوبة مقنعة، وصحيحة، عن التساؤلات الكونية الكبرى، التي لا تستقيم الحياة البشرية بدونها.

المعالم الكبرى للمذهبية التوحيدية

فالمذهبية التوحيدية^(١) التي غير بها رسول الإنسانية ﷺ وجه التاريخ الجاهلي، وبنى بها حضارة الإسلام السامقة، تتشكل من منطلقات أساسية سنحاول إثباتها في هذا العنصر دون شرحها— وذلك بسبب طبيعة البحث، ومنهجيته الحالية — وهي:

— التوحيد كأساس مفاهيمي، وتشريعي، ومعرفي.

— الإيمان والتصديق بوحدة بعث أنبياء ورسول لكل الأمم بدون استثناء، قال تعالى: ﴿وَلَنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر : ٢٤) .

(١) سنأترك الأبعاد العامة للمذهبية التوحيدية تاركاً التفاصيل والاستدلال والأبحاث والتحليل الاجتماعي لها لأننا نقسها في كتابي الإسلامية الحضارية الشاملة بحول الله .

- ضرورة الإيمان والتصديق بالملائكة.
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة مضمون البلاغ الرباني للناس كافة «عبادة الله، وتعبيد الناس له».
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصدرية للبلاغ والوحي «المولى تبارك وتعالى».
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة جهل الغيب الإلهي، من قبل البشر.
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة القضاء والقدر، خيره وشره.
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة نصره الله للأنبياء والمرسلين، ولعباده الصالحين.
- ضرورة الإيمان والتصديق بأن الأرض يرثها الصالحون.
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصدرية للخلق والكون والحياة «الله سبحانه وتعالى».
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة الابتدائية للخلق.
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة الهدفية للخلق «الاستخلاف».
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة التشريعية للخلق «الله هو المشرع الحقيقي».
- ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة التكرمية للإنسان «كل البشر بدون استثناء».
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الفطرة، والإرادة البشرية «في اختيار الخير والشر».
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة المسؤولية الفردية للناس عن أعمالهم أمام الله سبحانه وتعالى.
- ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الرزق الإلهي للمخلوقات كافة.

– ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة التسخير الكوني « الكون المادي » للناس كافة.

– ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة التسخير السنني « الكون السنني » لكل البشر.

– ضرورة الإيمان والتصديق بالوحدة المصيرية للخلق، « الموت والرجوع إلى المولى تبارك وتعالى ».

– ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة بعث الخلق بعد الموت.

– ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الحساب الإلهي، للناس .

– ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة الجزاء الإلهي « الجنة والنار ».

– ضرورة الإيمان والتصديق بوحدة العدل الإلهي .

ثانيا : الرؤية الاجتماعية

عندما نتأمل المشكلة السابقة من منظور عالم اجتماعي، تبرز لنا أحد الجوانب الأخرى للآزمة الجاهلية. الجانب الذي يصلنا مباشرة بعالم الممارسة اليومية، والحركة الواقعية للإنسان الجاهلي في ظل الثقافة الجاهلية. الثقافة الأرضية العاجزة عن السمو إلى مستوى الوعي التوحيدي. فالظاهرة الجاهلية من هذه الزاوية ترسم لنا صورة أخرى، من صور المازق العقائدي، الذي كان وراء محنة الجاهلية. فالإنسان هناك كان سلبياً لجملة من الأهداف كرس ذاته، وحياته، وطاقاته ليحققها. فكل قدراته الذهنية، والجسدية، والمادية موجهة لخدمة هذه الغاية، والدافع الأساس الذي كان وراء حركة الجاهلي، والمبرر المعقول بالنسبة إليه ليتحرك بالشكل السلبي، الذي أشرنا إليه، هو تلك الأهداف التي سنتعرف عليها من خلال هذين المثالين:

المثال الأول :

ففي مقالة جعفر بن طالب للنجاشي في أعقاب حوادث الهجرة الاولى إلى الحبشة قال : (ياأيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الاصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، وبأكل منا القوي الضعيف)^(١).

المثال الثاني :

في مقالة مبعوث الكفار عتبة بن ربيعة لرسول الله ﷺ قال : (يا ابن أخي إذا كنت تريد بما جئت به من هذا مالاً، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع دونك، وإن كنت تريد به ملكاً سودناك علينا)^(٢).

يبدو أن هذا البيان المختصر عن حالة المنطق الجاهلي، يستطيع أن يقدم لنا على الأقل الصورة الأساسية لطبيعة الحياة الجاهلية، وملامح فلسفتها الاجتماعية. فالبشر هناك من الوجهة الاجتماعية، يعانون من خلل، جعلهم رهائن « دائمين » لجملة من الأهداف السلبية، التي لم تتح لهم فرصة تفتيق طاقاتهم، وتسخيرها في خدمة رسالة معينة، ترتفع قليلاً أو كثيراً عن الفلسفة الأرضية المغرقة في المادية، والظلم الاجتماعي. لقد حصر الاجتماع الجاهلي نفسه في سجن « الاهتمامات البسيطة » المتوارثة، عن أجيال الفراغ العقائدي. ويبدو كأن خلاصة أمراض الجاهلية الإنسانية، وجدت لها مكاناً آمناً للتعيش، والبعض، والتفريغ، والنمو في ذات الجاهلي. فالجاهلي يقدم لنا أزمة مثلثية الشكل، تشتمل على ثلاث زوايا :

- زاوية الهوى والاشتغال بالعرض الدنيوي الزائل.
- وزاوية عبادة الصنم، والإعراض عن الحق تبارك وتعالى.
- وزاوية الجمود العقلي « الآبائية » والركود الثقافي.

(٢) المرجع نفسه، ص : ٢٩٥

(١) السيرة النبوية ، ص : ٢٣٦

قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان : ٤٣)
﴿ أَنْعَبِدُونَ مَا نَنْحِبُونَ ﴾ (الصفات : ٩٥) .

ولو استعملنا اللغة الاجتماعية، للتعبير عن الأزمة الجاهلية، لوجدنا بأن هذه « الأهداف البسيطة » لا تقدم مشروعاً اجتماعياً متكاملًا، لتوجيه الطاقة الحيوية للمجتمع، كيما تنحرك على خط التحضر، والثقيف، تبعاً لإيديولوجية معينة. ولهذا فالمجتمع الجاهلي، انعدمت فيه الفعالية الحضارية؛ وبالتالي فَقَدَ القدرة على التأثير في حوادث العالم، التي كانت تمر بهدوء يخدر النائمين، بعيداً عن كونه الجغرافي والفكري؛ هناك في ديار الحضارة الفارسية، والرومانية، حيث كانت تصنع الظاهرة الحضارية، استجابة لعقيدة تلك المجتمعات. وسوف نرى بعد مدة غير طويلة، من تحرك النبي ﷺ، كيف أصبحت المنطقة السابقة، محطة لبناء حضاري عظيم، استقطب أنظار الحضارات القائمة، وهذا فيما بعد أركانها من الأساس.

إن الناس في المجمع الجاهلي، كانوا يستبسلون في دوامة أهداف بسيطة، دلَّ « علم السَّير في الأرض » أنها هي التي أغرقت كل الحضارات القديمة؛ تلك الحضارات التي كانت تقدس أشباه الأرباب الأرضيين، وخير مثال نسوقه هنا هو نموذج المجتمع الفرعوني القديم .. ونفس هذه النزعة سوف تهلك الفراغة الجدد للعالم .. فراغة « الاستعمار الديمقراطي »؛ والمجتمع السوفيياتي القديم المعاصر، مثال آخر .. وتلك هي سُنَنُ الله في الاجتماع البشري.

إن الأهداف البسيطة لا تمتلك الروح الدافعة، التي تخلق للناس اهتمامات ترتفع بهم فوق وجودهم الأرضي الزائل، وتربطهم بالواقع الرباني التسمامي، الذي يستلهمون منه « النَّفْسُ الحضاري » الممكِّن في الأرض .
هكذا إذن كانت وضعية المجتمع الجاهلي، التي امتدت في الحقيقة (أكثر من

ألفي عام، ابتداءً من الجدل الأكبر إسماعيل حتى محمد ﷺ، ولقد أثمر هذا التاريخ الطويل فناً غنياً، وخلف تراثاً أدبياً رفيعاً لا نظير له بين الأمم الأخرى، وتلك هي القائمة التاريخية للمجتمع، خلال هذه الحقبة من الزمان، ولو استخدمنا لغة الاجتماع لقلنا: إن هذا كل ما أثمره المجتمع الجاهلي، كثمرة لنشاط استقطب حول « الحاجة » و« المنفعة »، وبذلك نلاحظ أولاً أن هذا المجتمع لم ينتج كثيراً، مادام لم يخضع إلا لاتجاهات الحياة اليومية وقواعدها^(١).

من هنا تشكلت الأمة الحقيقية للمجتمع الجاهلي في شقيها: الكوني والاجتماعي. ولكي تحل هذه الفاجعة الحضارية الكبرى، يتطلب الأمر إحداث تغييرات جذرية في المجتمع الجاهلي، ولن يتحقق هذا إلا بتغييرات جذرية في البناء الثقافي، ولا يمكن تحصيل ذلك إلا بتغييرات جذرية في الإنسان، ولا يمكن إجراء أي تعديل عقلي أو روحي أو سلوكي في حياة الإنسان، إلا بعبقيرة كونه معينة. وهذا هو العمل التاريخي الأساس، الذي قام به رسول الإسلام ﷺ.

المنهج النبوي في بناء الحضارة العالمية

النبى ﷺ واجه قضية تركيب حضارة، وبناء مجتمع انطلاقاً من واقع معين، ولكي نفهمه بعمق، علينا أن نتعرف على العناصر الأساسية التي ساهمت في تشكيل الظاهرة التغيرية الإسلامية، وهي:

- عالم العقيدة الإسلامية، الذي أشرنا إلى جانب منه في التحليل السابق.
- المنهج النبوي في البناء الحضاري « مرتبط بالسنن، وبمنهج السير في الأرض ».

(١) ميلاد مجتمع . ص : ٤٩.

- الإنسان القديم بموارثه، وأمراضه الكونية، والاجتماعية.

- المجتمع الجاهلي، بثقافته، وتاريخه، ومؤسساته.

- الجماعة المؤسسة للعمل التغييرى الإسلامى « الصحابة ».

- القراءة « باسم ربك » كمعجزة حضارية، وكمنهج تغييرى.

فالقدره على فهم هذه العناصر فى سياقها الاجتماعى، والعضوى، هو الذى سىكشف لنا عن معالم المنهج النبوى، فى بناء الحضارة العالمىة، من خلال تقديمه لنموذج من نماذجها، وهو المثل الكامل، والقذوة الحضارية، التى تمثل معيار البناء الحضارى الإسلامى.

فالمنهج النبوى فى بناء النموذج الاول للحضارة العالمىة، ووضع برنامجها، وتأسيس قواعدها، وترسيم حدودها، وصياغة منهجيتها، وتحديد وجهتها، وتعليم مقاصدها، كان منبئاً على اصول الوحي الاعلى، الذى ادار العملية التغييرية، حول محور الإنسان كفرد، وكمجتمع، وكامة، وكإنسانية، وعلى هذا فدراسة الظاهرة التغييرية النبوية، هى دراسة فى منهج بناء الإنسان، بما فى ذلك فلسفة هذا المنهج، ومشروعه، وغاياته، ومقاصده، وأدواته، وشروطه، وأساليبه، ومنهجيته ..

ومن هنا فسنحاول الآن إثبات بعض الملاحظات عن المعالم الكبرى للمنهج النبوى فى بناء الإنسان.

المحاور الثلاثة للمنهج النبوى

إن المتتبع لحركة التغيير النبوى، يجدها قد سارت بتوافق تام، مع سنن البناء الاجتماعى، التى ترافق دوماً ميلاد المجتمعات الحضارية فى التاريخ، أعني أن

جهد النبي ﷺ عبر مراحل « الإنشاء الحضاري » الثلاث، والتي سبق وإن أشرنا إليها في فصل سابق وهي:

- مفصل الربط الحضاري للإنسان بالرؤية الكونية الإسلامية.
 - مفصل التثقيف الحضاري للمجتمع على المشروع الاجتماعي.
 - مفصل البناء الحضاري للرؤية والمشروع في شكل واقع ثقافي وعمراني..
- إن التحليل الاجتماعي، والاستقراء التاريخي، لحركة التغيير الاجتماعي، التي توافقت نماذج التغيير الخاضعة لتوجيه نموذج فكري، قد دلا على أن العملية التغييرية تمر بهذه المراحل، مع اختلاف منهجي في طبيعة الواقع المستهدف بالتغيير، من حيث الوسائل، والأدوات، والكيفيات، والتوجيهات الاجتماعية، تبعاً للرؤية الكونية، والإمكان البشري، والفكري، والمادي. فالتغيير الذي أجرته الحركة المسيحية على المجتمع الأوروبي، وأدخلته بذلك إلى العصر العالمي الراهن يشبه التغيير الحضاري الإسلامي، الذي أدخل المجتمع الجاهلي إلى عالم الحضارات في مفاصل التغيير، أي في أنهما معاً قد مرّا بمراحل الربط، والتثقيف، والبناء، ولكنهما اختلفا في الأسلوب، والفلسفة، والمفهومية، والوسائل، والمنهجية. فالتغيير الحضاري المعاصر، الذي تسعى الحركة الإسلامية، والحركة المسيحية إلى تحقيقه، سيمر بنفس المراحل التغييرية الثلاثة: الربط، والتثقيف، والبناء، ولكن مع اختلاف جوهري في الفلسفة، والمنهج؛ وكذلك في اختلاف الوسائل، والأدوات، والتقنيات، والكيفيات، إذا قرناها بما كان عليه الوضع في حركة التغيير الإسلامي، والمسيحي الأولى. فالعصر العالمي الراهن أحدث تغييراً مهولاً في وسائل، وتقنيات التغيير الاجتماعي، تجب مراعاتها في أي تغيير جديد.

فالوعي الذي يجب أن تتمتع به القيادة التغييرية في حقل التغيير، هو ضرورة علمها بأن عملية التغيير الحضاري في الطور الأول من أطوارها، تشتمل على

عوالم ثلاثة هي : عالم الربط الحضاري، وعالم الثقيف الحضاري، وعالم البناء الحضاري، ولكل عالم من هذه العوالم شروطه، ومتطلباته، ومراحلته ومناهجه، ووسائله، وأساليبه .. وكل إخلال بحاجة أي واحد منها، سوف يؤدي إلى الفوضى، والتصادم داخل الحركة التغييرية، ناهيك عن مسارها الكلي، وخاصة في المجتمع العالمي الراهن..

أولاً : المنهج النبوي وعالم الربط الحضاري

عملية الربط الحضاري للإنسان برؤية كونية معينة، هي العمل التاريخي الأول في حركة التغيير الاجتماعي، الهادفة إلى بناء ثقافة .. وعملية الربط أول ما تتحرك، فإن وجهتها، تكون نحو الإنسان، إذ هو غايتها الأساسية، وساحتها الكبرى.

ولهذا السبب كان التوجيه القرآني حاسماً في التنبيه على الساحة المركزية للتغيير الاجتماعي الاصيل، وهي الساحة النفسية بمفهومها الشامل :

قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد : ١١) .

فهذه الآية تحدثت عن ضرورات خاصة بفهم الرؤية الكونية عموماً، وتحدثت عن ضرورات خاصة بالمجتمع، وسلوكه الاجتماعي «سلباً وإيجاباً» .. كما تحدثت عن ضرورات خاصة بالمنهج التغييري .. والذي يهمنها منها في هذا التحليل هو الشق الذي أشار إلى تغيير ما بالنفس، والذي سنبحثه من وجهة نظر النموذج التغييري النبوي^(١).

ففي مفصل الربط الحضاري، جاهد الرسول ﷺ من أجل «ربط» النفوس

(١) راجع كتاب : حتى يغيروا ما بأنفسهم ، للأستاذ جوبت سعيد .

والعقول بالخطاب الإلهي، وأتاح لها فرصة الاستجابة لتوجيهات الوحي الأعلى.

مفهوم الربط الحضاري

إذا ما حاولنا البحث عن كلمة الربط، ومشتقاتها من خلال النصوص القرآنية نجدها وردت في عدة مواضع هي:

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال : ١١).
﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص : ١٠).

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (الكهف : ١٤)
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصِيرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران : ٢٠٠).

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال : ٦٠)

ففي الآيات الأربع الأولى، جاءت الكلمة معبرة عن وضع ديناميكي حركي، أي في صيغة الفعل الذي يؤدي إلى نتائج مثل: الثبيت على الحق، والإيمان، والإقرار بالربوبية، والدعوة إلى الله الواحد القهار، والحركة المستديرة في سبيل الحق تبارك وتعالى؛ حيث أشارت الآيات الثلاث الأولى من الأربع، إلى قضايا متعلقة بعالم القلوب، والنفوس «ظاهرة نفسية»، متعلقة بعلوم النفس، أما الآية الرابعة فقد أشارت إلى قضية متصلة بالظاهرة الاجتماعية، والتحرك في

الواقع ، ومسك الثغور، والساحات الجهادية المتنوعة « المرابطة » .. وبعبارة أخرى، الآية تشير إلى « عالم الحركة الاجتماعية » ، حيث علوم الاجتماع البشري .

أما الآية الخامسة، فقد أشارت إلى وسيلة من وسائل المrabطة، أي توجهت نحو « عالم الوسائل » (رباط) . ثم تحدثنا الآيات في مجموعها عن مقاصد، وغايات، ينشدها الإنسان، وعن كيفية الوصول إليها، وفي الإطار الكلي للآيات يقف المنهج التغييري، الذي ترجعه إلى عالم النفوس، وعالم المجتمع، فهو منهج الربط الحضاري الذي يحتاج إلى البنيان البشري المرصوص، الذي يربط في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى .

إننا لا نقصد هنا، البحث عن المعنى اللغوي لكلمة ربط، وإنما عن المضمون المنهجي، والنفسي، والاجتماعي، والغائي لها . فلو أخذنا مثلاً وجهة نظر مفسر كابن كثير، فإننا نعتز لديه عن فكرة مهمة في هذا المجال، وهذه فقرة من تفسيره :
(... ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السموات والأرض ﴾)
يقول تعالى : وثبتناهم على مخالفة قومهم، ومدنيتهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة (١) .

فالربط الذي نعينه هنا هو الذي يتعامل مع القناعات الخالصة للبشر، بدون ضغط ولا إكراه .. فهو الاقتناع الراسخ ، والارتباط الوثيق بفكرة معينة، وهو كذلك دافع ذاتي في أعماق النفس الإنسانية، بحيث يعطيها طاقة الالتزام الكامل بضرورات العيش، تحت توجيه فكرة معينة .

فالارتباط بالشيء هو السلوك الناتج عن عمليات الربط للإنسان بعقيدة معينة، وفق منهجيات تتطابق مع سنن الله في الربط الحضاري ، فهو من الوجهة

(١) مقتصر لتفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني ، ط : ٢ ، السنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م دار القرآن الكريم ، بيروت ، ص : ٤١٠ .

النفسية، حرارة ذاتية غلبة على طريق الفكرة ، وإيمان داخلي يخلق في الإنسان طاقة الإخلاص لها.. وهو من الوجهة الاجتماعية، الموقف التاريخي الذي تأخذه جماعة تغييرية ما، وبه تستجيب لمقتضيات الكفاح، من أجل رسالة معينة، وتنشط من أجل تحقيق مشروعها الاجتماعي .. وهو كذلك جو إنساني يتيح للجماعة بأن تتعلم قوانين العيش في جماعة حضارية .

الربط الحضاري في الجهد النبوي

والنموذج النبوي في التغيير، يعطينا صورة عميقة لظاهرة الربط الحضاري، وخير دليل على صحة هذا الاعتقاد، هو تتبع بعض العينات العملية من حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام :

المثال الأول :

تأمل جيداً جواب النبي عليه الصلاة والسلام لكفار قريش، وهم يحاورونه في بعض قضايا الدين، وذلك باستعمال وسائلهم الخاصة التي تنتمي إلى الثقافة التقليدية :

(وما جئت بما جئت به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا أملك عليكم، ولكن بعثني الله إليكم، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم بيني وبينكم) (١).

المثال الثاني :

تأمل كذلك مقالة جعفر بن أبي طالب للنجاشي، وهو يشرح مبادئ الإسلام حيث قال : (فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف

(١) السيرة النبوية ، ص : ٢٣٦ .

نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفاه، فدعانا إلى الله، لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة... (١).

إن أول ملاحظة يمكن تسجيلها على المثاليين، هي بداية ظهور منظومة جديدة من الأهداف، وبوادر ثقافة، مازالت في حيز القوة، ومعالم مشروع اجتماعي وليد، بدأ يسجل حضوره التاريخي، في عالم الآخرين، عن طريق نموذج الكوني، الذي انطلق في تلك اللحظات في صراع واسع النطاق مع الجاهلية القائمة بكل ألويتها القديمة .

فكلام النبي عليه الصلاة والسلام من جهة، يبرز لنا معالم النموذج التوحيدي، ويحدد مضامينه العامة، على الأقل في المرحلة الدعوية الأولى؛ ومن جهة أخرى يوضح لنا مهمته ﷺ في هذه المرحلة التاريخية، ثم يوضح لنا نتائج الاحتمالين الواردين: احتمال الرفض، واحتمال القبول، وجزاء كل واحد منهما.

أما كلام واحد من أصحابه الأوائل (مرتبط بالفكرة) فقد بين لنا العلامات البارزة على طريق المشروع الإسلامي الجديد، وحدد بعض أبعاده الاجتماعية، والتربوية، والسلوكية. كما قدم لنا تقريراً موجزاً، ووافياً عن شخصية الرسول ﷺ فيها بعض جوانب أخلاقه، وتاريخه.

إن هذه العينة مأخوذة عمداً من الفترة المكية، لكي تبرز لنا بعض القضايا

(١) المرجع نفسه، ص: ٢٣٦، مع ملاحظة أن هذا القول فيه ضعف من ناحية المتن، لأن جعفر يتحدث هنا عن الزكاة، وهي لم تكن قد شرعت بعد .

المتعلقة بالتغيير في مراحل الانطلاقة.

فالمرتبون الجدد بالإسلام سيخضعون لعملية تربية منهجية، من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا هو في الحقيقة العمل التاريخي الأول، الذي أنجزه ﷺ؛ حيث عمل على ربط الناس بالرؤية التوحيدية، وبالتالي «بالأهداف الحضارية الكبرى» للإسلام كبديل عن الأهداف الصغرى والبسيطة للجاهلية القديمة، بكل ما يحتاجه هذا العمل الحضاري الضخم من وسائل، ومناهج، وأساليب، تماشى وطبيعة الدين الجديد، حيث فكرة المشروع وغير المشروع من الأدوات، والسلوكات، والمواقف، واجبة المراجعة. وحيث ضرورة الانتقال بالدعوة من مرحلة إلى التي تليها، ومن مستوى البيت، والأسرة، والعشيرة، والقوم، والمجتمع الجاهلي القديم، إلى مستوى العالم أجمع، حيث كانت المنهجية الأخيرة في دعوة النبي ﷺ للحضارات القديمة جميعاً، وإعلان عالمية الحضارة الإسلامية واقعياً.

لقد سعى ﷺ عن طريق عمليات «الربط الحضاري» الأولى إلى بناء جماعة إسلامية قاعدية - «الصحابة» - على أساس النموذج الحضاري التوحيدي، تلك الجماعة التي ستكون قائدة البناء الحضاري الإسلامي الأول، والذائدة عن حمى الإسلام، ورسالته، ومشروعه. لقد كان جهد الرسول ﷺ منظماً، ومخططاً بواقعية، وعلمية، وتوازن.. يعمل بلا كلل ولا ملل، يحذوه الأمل المشرق، ويرافقه العزم والتصميم، والإرادة، والرغبة المتنامية، وتوجهه الإرادة الإلهية عن طريق رسالة الوحي الأعلى، الذي كان يتابع عن كשב أحداث الدعوة، ومراحل نموها لحظة لحظة، وموقفاً موقفاً، يتابعها في تفاصيلها الظاهرة والباطنة..

عمليات الربط وشبكة العلاقات الاجتماعية

مرحلة الربط الأولى، كانت حاسمة في حياة الدعوة بأكملها، لدقتها وخطورتها، لأنها كانت تواجه الجاهلية في أعز ما تملك.. تواجهها في أصنامها وفي دنيائها المطلقة. وهذه المواجهة باللغة الاجتماعية، تعني استقطاب عالم الأشخاص الذي كان ينتمي إلى المجتمع الجاهلي، وربطه بالمجتمع الإسلامي الوليد، وهذا الذي ظهر من خلال حركة النبي عليه الصلاة والسلام، من أجل بناء قاعدة بشرية، ترتبط بأهداف الإسلام الحضارية، وتقتنع برسالة ومشروع هذه العقيدة الجديدة. فهذا العمل هو مخاطبة للعقول، ومحاورة للأذهان، والثقافات، والتقاليد، والعادات، كيما تنتقل من طورها الجاهلي إلى طورها الإسلامي، وذلك عن طريق عمليات الربط الحضاري. وهذا فعلاً ما أنجز في فترة قصيرة حيث وجدنا جماعة، تشتمل ضمن صفوفها على مختلف شرائح المجتمع، وطبقاته، بما فيها: السيد والعبد، العالم والامي، الغني والفقر، الصبي والشيخ، التاجر والفلاح، الراعي والصانع، الطبيب والعسكري.. فكل هؤلاء - نساءً ورجالاً - أصبحوا موضوعات للدعوة، والربط الحضاري، فهم الذين كانوا بمثابة الزاد الذي غذى جنين الحضارة الإسلامية، وصنع تاريخها.

من هنا نستطيع أن نؤكد بأن الغاية الأساسية لعمليات الربط الحضاري، هي: بناء شبكة علاقات رسالية، يتواجد فيها: العالم، والمعلم، والمتعلم.. والداعي، والمفكر، والمثقف.. والصناعي، والزراعي، والحرفي... والجمهور المسلم الراعي، ويتحرك هؤلاء في تناسق، وتناغم، وانسجام من أجل تحقيق رسالتهم الحضارية، ذلك لأن (أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه، مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات، وعلى هذا الأساس نستطيع

أن نقرر : أن شبكة العلاقات، هي العمل التاريخي الاول، الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده (١).

عمليات الربط وشبكة العلاقات النفسية

أما عندما ننظر إلى عمليات الربط من الوجهة النفسية، فإننا نجد لها عبارة عن جهود من أجل تحقيق غايتين في ذات الإنسان، هما :

— عملية إفراغ للعقول من الموارث الجامدة، والمعطلة، وإخلاء للقلوب من مس الشياطين، وهوس الملاعين!!

— عملية بناء للعقول بالقيم الحية، والأفكار السليمة، وتعمير للقلوب بالمبررات الدافعة، والشحنات الإيمانية القوية ..

وبعبارة أخرى: إفراغ الإنسان من كل المعطلات، والمشبطات الفكرية، والنفسية، والسلوكية، التي تعيق حركته الفاعلة في التاريخ، وتكبل نظم الطاقة الحيوية لديه، وتبددها خارج دوائر البناء الحضاري المستقيم على الطريقة .. وتزويده بالقيم، والمبررات الفاعلة التي تسلك بطاقته على طريق الخير، والعمل الصالح. وبعبارة أخرى: عمليات الربط على الصعيد النفسي، هي التي تخلق في ذات الإنسان جواً: (يجد الفرد نفسه فيه متخلياً عن عدد من الانعكاسات المنافية للنزعة الاجتماعية، ليكسب مكانها أخرى أكثر توافقاً مع الحياة الاجتماعية، وذلك هو تكييف الفرد .. فهو عملية تنحية، تجعل الفرد لا يعبا ببعض المثيرات ذات الطابع البدائي — كتلك الحمية التي كانت تعتري عرب الجاهلية، وتدفعهم إلى الأخذ بالثأر — وهو عملية انتقاء، وإحساس، تجعل الفرد قابلاً لمثيرات ذات طابع أكثر سمواً .. طابع أخلاقي، جمالي مثلاً (٢).

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٢ .

(١) ميلاد مجتمع ، ص : ٢٥ .

مثال من السيرة النبوية

لنتتبع هذا المثال التوضيحي .. فجعفر بن أبي طالب، لما أجاب التجاشي، قال له:

– (كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ...) فهذه هي مجموعة الموارث، المعطلة للطاقة البشرية .. ثم واصل كلمته قائلاً:

– (فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه ...) وهذه هي مجموعة الأهداف، والمبررات الجديدة، التي تمثل مصدر الطاقة الحيوية الجديدة. ثم يضيف مؤكداً:

– (فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به، وحرمنا ما حرم الله علينا، وأحللنا ما أحل ...) .. فالدلالة واضحة هنا على تمام عمليات الربط الحضاري، بشكل مستوف للشروط، وذلك على صعيد العينات الفردية، التي ستتحول فيما بعد إلى مجتمع حضاري هو «مجتمع المدينة».

قال تعالى:

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِتَرِّ قُلُوبِهِمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣).

إن التحول الذي أحدثه الرسول ﷺ في نفسية صحابته الكرام، هو الذي يفسر لنا فيما بعد، قدرة هذا المجتمع على «المراطة الحضارية»، والعطاء الإنساني الكبير، في مختلف حقول المعرفة البشرية ..

لقد مارس الرسول ﷺ عمليات الربط الحضاري، على مستوييها: النفسي،

والاجتماعي، وحقق فيها أعلى مستويات الإتقان المنهجي والثقافي، وترك لنا نموذجاً لبناء حضاري عالمي شامخ، بمقدوره أن يقدم لنا « الهداية الحضارية » كلما استدعيناه بوعي، وفهمناه بعمق .

العصر العالمي والربط الحضاري

إننا نريد اليوم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين، أن ننجز عملية تفسيرية حضارية في مستوى القرآن الكريم، والسنة النبوية. ففي ظل قرن الحضارة العالمية، يُطرح سؤال مهم هو:

كيف نربط الناس بالإسلام، وبمشروعه الحضاري من جديد؟

وأمام هذا التساؤل، فإننا مضطرين إلى تحديد صورة عامة، عن طبيعة عمليات الربط الحضاري، ومتطلباتها الأساسية، مرجئين منهجية الربط، وكيفيةاته، إلى حينه. فلكي تتم عمليات الربط الحضاري، بشكل مستوف للشروط، نحن بحاجة إلى:

- السعي إلى بناء شبكة علاقات اجتماعية في كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية القائمة، كمرحلة ضرورية على طريق بناء شبكة العلاقات الحضارية للامة من جديد، وذلك من خلال التحرك على مستوى : الإنسان، والمجتمع، والإنسانية .. والاستفادة من التعاطف العالمي مع الإسلام، من قبل من لم تسمح الحضارة الغربية فطرتهم الخيرة ..

- بناء وعي مستوعب على الواقع الاجتماعي الفردي، والجماعي المحلي، والعالمي، على اعتبار أن هذا الواقع سوف يخاطب بالاهداف الحضارية الكبرى للإسلام ..

- تشكيل وعي عميق على الرؤية التوحيدية، ومشروعها الحضاري البديل

وضوابطها الشرعية، ونواظمها الثقافية، والمعرفية، والاخلاقية، وضماناتها وعودها.

- امتلاك منهج للعمل التغييري الذي سوف يجدد الوسائل، والأولويات، والمراحل، والأوقات التي ينفذ فيها الفعل التغييري، كما تعرف فيه أساليب التغيير في مرحلة الربط الحضاري، ومنهجياته النظرية والعملية، وإجراءاته التربوية، والاستثنائية. فبدون منهج واضح المعالم، والخطوات، والأهداف، والسياسات، قد لاتصمد الحركة التغييرية أمام ابتلاءات الواقع العالمي الداهية؟!.

وفي نفس الفصل التغييري سوف تكون الحركة التغييرية مطالبة بوضع مخططات، وبرامج للربط الحضاري على المستوى الفردي، والجماعي، والإنساني، وعلى الصعيدين المحلي والعالمي، والانطلاق الفعلي في طرح الرؤية الإسلامية، وعرضها على المجتمعات، وهنا تنشأ ضرورة التخصص في الفعل التغييري من خلال إنشاء المؤسسات التغييرية لعالم الربط الحضاري والتي منها:

- مؤسسات إعداد، وإنتاج مناهج عرض الرؤية، والضمانات، بالأسلوب الأمثل، الذي أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام «الجدل الأحسن» «التيسير المخفف».. وهنا تعد المشاريع التربوية بالمفهوم الشمولي حتى تصبح تربية اجتماعية، تطول كل شرائح المجتمع، وفي كل مؤسساته المتنوعة، مع مراعاة توزيع الخريطة الثقافية، والجغرافية للناس، وقدراتهم، واستعداداتهم، كما أشرنا في البداية، فالعامة موضوع، والجماهير موضوع، والمثقفون موضوع، والمفكرون موضوع، والمهنيون موضوع، والسياسيون موضوع، والتجار والأغنياء موضوع.. إلخ، وكل موضوع من هذه الموضوعات يحتاج إلى فهم معادلته، والأسلوب الأمثل في التعامل مع قضاياها، ومتطلباتها.

- مؤسسات ممارسة الدعوة، وتخريج الدعاة الربانيين، وإنتاج منهجيات البلاغ المبين.

- مؤسسات توزيع، ونشر الأفكار، وتبادل الخبرات.
- مؤسسات المتابعة، والمراقبة، والتقويم المتنامي للأشخاص، والأشياء، والأفكار.

- مؤسسات تنمية الإمكان المادي، والوسائل، والخبرات الاستخدمية
للأدوات .

كما أن كل مؤسسة من هذه المؤسسات وغيرها، تقتضي تفريعات،
وتخصصات، فمثلاً في مؤسسات إعداد، وإنتاج مناهج عرض الرؤية، والرسالة
نحتاج إلى:

- قسم التوجيه وإنتاج المنهجيات الدعوية .
- قسم التوجيه المعرفي الفكري للعلوم الاجتماعية، والسلوكية ، والكونية
عموماً .

- قسم تصنيف احتياجات الدعوة على صعيد الأفراد، والأسر،
والجماعات، والدول، والمجتمعات، والأمم، والإنسانية ..

- قسم هندسة عالم الأشخاص، وتسيير الجهاز البشري للحركة التغييرية،
بعيداً عن منطق الإدارات، والبيروقراطيات المريضة، بل في إدارات أخرى هي
إدارات الجرح والتعديل، وعلم الرجال .. إلخ .

- قسم توجيه طاقات الحركة التغييرية البشرية، ونشرها داخل البناء
الاجتماعي .

- قسم متابعة الحركة التربوية، والتكوينية للمرتبطين بالرسالة، والإجابة عن
تساؤلاتهم، وتنمية صلاتهم بالفكرة .

هكذا إذن تتعقد العملية التغييرية، وتتعدد العمليات في مفصل الربط
الحضاري، كلما تطور العقل البشري، ونما نضجه الفكري، والنفسي؛ وكما
تحسن النمو العقلي والنفسي للناس، كلما حقق الإسلام مقاصده المنشودة، لأن

الإسلام يحب العمل تحت سيادة منطق الحوار، والإقناع، والجدل الحسن، ويمج منطق التزييف، والغموض، والقهر.

فالتغيير الحضاري لم يعد مجرد تكديس للأعمال والبشر، بل أصبح هندسة حضارية عالية للمجتمع، وطاقاته، تتطلب المزيد من الوعي والفهم والخبرة.

ثانياً : المنهج النبوي وعالم التشقيف الحضاري

إن الحركة التغييرية وهي تتفاعل مع مشكلات الواقع، وهمومه، سوف تضطر إلى استيعاب متطلبات المجتمع، والسماع لخطابه، وحاجاته التي يرفع صوتها الناس من كل توجه، وتيار، وحزب. فمن الناس، مَنْ مشكلاتهم عقلية، ومنهم من مشكلاتهم نفسية، أو أخلاقية، أو تربوية، ومنهم من مشكلاتهم معاشية أو مادية، ومنهم من مشكلاتهم عصبية أو قبلية.. ومنهم من يطالب بسيادة منطق الفوضى، ومنهم الحاقدون، والمقرضون.. ومنهم من يجادل على صعيد الفكر والعلم، ومنهم المجادل على صعيد المنهج، والمشروع.. ومنهم من يطالب بالبدائل، ومنهم من يطالب بالمعجزات الخارقة، ومنهم من يريد الخير للإسلام، ولكن أسلوبه يسيء إلى الإسلام، ومنهم من يريد الشر للإسلام ولكن يخدمه من حيث لا يعلم.. والخلاصة هي: أن في المجتمع حياة، وديناميكية، وخير، وشر. والحركة التغييرية الحية، هي التي تفهم حركية المجتمع، وتسعى إلى معرفة همومه، واحتياجاته في كل لحظة، وآن، كيما تتمكن من استيعابه، وتقديم الخير له بدون إكراه، ولا تكليف بما لا يطاق.

كما أن الحركة التغييرية سوف تواجه من قبل عالم أشخاصها، وما يطرحه من تناقضات، وأمراض، وظروف متعلقة بثقافات الناس القديمة، تلك التي

ستدخل إلى الحركة التغييرية، عن طريق العمليات الجارية في مفصل الربط الحضاري. ولكي تستجيب الحركة التغييرية بوعي، لكل هذه المتطلبات وغيرها، مما يعرفه أصحاب القضية، فهي مضطرة منهجياً إلى فتح المفصل الثاني، من مفاصل التغيير، وهو مفصل «التثقيف الحضاري».

مفهوم التثقيف الحضاري

إنه بمثابة المرحلة الوسيطة التي تتخصب فيها المشاريع، وتنمو فيها الخبرة باستمرار، وتتوجه نحو الواقع رويداً رويداً، وذلك بعد أن تتم عملية بناء المشروع التغييري، على الصعيد النظري، أي مستوى النفوس، والعقول، التي سوف تمارس عليها عمليات التثقيف، التي ستؤهلها للعيش في ظل ظروف الواقع المعيش، وفيها كذلك تعد مناهج تطبيق مشروع الإصلاح الاجتماعي.

إنها مرحلة حاسمة حقاً، لأنها هي التي تصل الوعي النظري بالوعي الواقعي، وتربط بين المبادئ النظرية، والمؤسسات الميدانية، وتؤلف بين الرؤية الكونية ومشروعها العملي، وبين إنسان النظرية الذي يكون في مؤسسات الربط الحضاري، وبين إنسان التطبيق الميداني، الذي يباشر عمليات الإنجاز. فهي مرحلة لازمة لاكتمال نمو الأفكار، ونضج الطروحات، وترسيخ القيم والمبادئ، وتحذير الاقتناع بالرسالة ومشروعها.

فهو الجسر الذي يربط بين عالم ظهور الفكرة، وبداية ارتباط الناس بها، وعالم تجسيدها، وبناءها الموضوعي، وبين أزمة ما قبل الربط الحضاري، التي يعيشها الإنسان والمجتمع، وعالم ما بعد التثقيف الحضاري، الذي يصير فيه الإنسان والمجتمع على استعداد تام، ليعيشا في ظل الواقع الذي قاما لإنجازه.

وبعبارة أخرى: إنها مرحلة تعمير العقول، وتنوير القلوب، وتركيز النفوس،

واكتساب القدرة على البناء، والعلاج لمشكلات المجتمع، وصياغة المناهج الكفيلة بتقديم البدائل العملية للواقع المتأزم . والتثقيف الحضاري للإنسان، وعملية تكوين الخبرات، تحتاج إلى شروط، وموجبات، ومنهجيات، ومؤسسات، تماماً كما كان الحال في مفصل الربط الحضاري .

المنهج النبوي والتثقيف الحضاري

النموذج النبوي يعطينا صورة حية عن هذا المفصل، من مفاصل التغيير، وهذا ما تدل عليه توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام، المتعلقة بحثه على العلم، والتجربة الواقعية، والتفقه في دين الله، وكذلك في عملياته التربوية التي ثقف بها المجتمع الإسلامي الأول، وساعد الإنسان ليفهم بعمق رسالته، ومشروعه، والبدائل التي يجب تقديمها، لحل أزومات مجتمعه . ومن الأهمية بمكان أن نثبت هنا بعض النماذج من حياته ﷺ وحياته صحابته الكرام، كمنتوج لعمليات التثقيف التي مارسها في مراحل الدعوة الأولى .

النموذج الأول :

تأمل جيداً جواب النبي عليه الصلاة والسلام لعمه أبي طالب، عندما قدم له مقترحات قريش لإغرائه، وصرفه عن دعوته حيث قال : (يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أوهلك فيه ، ما تركته)^(١) .

في هذا النموذج الرائع، لم يترك النبي عليه الصلاة والسلام، أي مجال للشك في ارتباطه الوثيق، وإيمانه الجازم، بالاهداف الحضارية الكبرى للإسلام .

(١) السيرة النبوية ، ص : ٢٣٦ ، وهو ضعيف (الضعيفة ، ١٠٩) ، وقد ثبت بسند حسن بلفظ : « ما أنا بقاتل علي أن تستعملوا لي منها شملة » - يعني الشمس - انظر الصحيحة (٩٢) .

فقد وضع عليه الصلاة والسلام وعيه، بين حدي العمل المنتج، وهما أن يظهر الله هذا الدين، أو يهلك دونه، وهذا فهم عميق لرسالة الإسلام، وقدرة كبيرة على توجيه المشكلات، وحل المعضلات، لصالح مسار الدعوة الاصيل، فهو هنا لم يقدم فقط موقفاً رافضاً لما هو مطروح عليه من استفسارات، بل وضع منهجاً في التعامل مع المشكلات، التي تتصل بقضية الاعتقاد، والإيمان بالافكار، والتعامل مع أعدائها المعرضين.

فالنبي عليه الصلاة والسلام، قد نفذ بوعيه، وإدراكه للفكرة التوحيدية، من مجال الوعي البشري العادي، إلى مجال الوعي المتسامي، والمتجه نحو المولى تبارك وتعالى، ليتحرك في الواقع بنور الله، وهدايته.

النموذج الثاني :

انظر إلى موقف أبي بكر رضي الله تعالى عنه، من أصحاب رسول الله ﷺ الذين لحقهم أذى المجتمع الجاهلي، عندما قال له والده أبو قحافة :

(يا بني إني أراك؛ تتعق رقاباً ضعافاً، فلو أنك ما فعلت، أعتقت رجالاً جلدأ يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر : يا أبت إني، إنما أريد ما أريد الله عز وجل)^(١).

إن هذا الموقف من الخليفة الإسلامي الاول، فيما بعد، يعبر عن وعي بصير على الاهداف الحضارية الكبرى للأمة، ولنموذجها التوحيدي، رغم ان هذا الموقف كان في المرحلة الاولى للدعوة .. فعلى الرغم من معقولية كلام والده وخاصة في المنطق القديم لكن جوابه كان واضحاً وحاسماً، لانه يعرف بأن هؤلاء الضعفاء هم إسمنت البناء الحضاري .. وهذا الموقف هو الذي صدقه التاريخ الإسلامي فيما بعد .

(١) المرجع نفسه . ص : ٣٦٦ .

النموذج الثالث :

ويعبر عن الوعي التثقيفي، والتربوي العميق لدى النبي عليه الصلاة والسلام، وتحكمه الجيد في حركة التوعية على منهجية العمل الإسلامي، وفهمه لمراحلها، ومتطلباتها. ففي إطار التدريب التربوي لأصحابه، رأى (رسول الله ﷺ) ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، بمكانة من الله ثم من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه^(١).

النموذج الرابع :

في هذا النموذج يرسم لنا النبي عليه الصلاة والسلام منهجاً أصيلاً من مناهج الدعوات، وذلك باستخدامه منهج السير في الأرض، والنظر في سنن الذين خلوا، من أجل تثقيف أصحابه على منهج البناء الحضاري. فعن خباب بن الارت رضي الله تعالى عنه ، أنه قال :

(شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه، وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه.. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون)^(٢).

إن هذا الوعي البصير، هو الذي حافظ على حركة التغيير الإسلامي ، ومكنها من المواجهة، والمراجعة الناجحة، والنمو الإيجابي، الخاضع لسنن الله في

(١) المرجع نفسه . ص : ٢٢١ .

(٢) رواه البخاري .

الخلق.. ومن المهم هنا أن نعرف أمرين أساسيين :

الأول : (أن الرسول صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم، كان وازعهم فيه من أنفسهم، لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي، ولا تأديب تعليمي؛ وإنما هي أحكام الدين، وآدابه المتلقاة نقلاً، ياخذون أنفسهم بها، بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق)^(١).

ثانياً : ومن هنا، فإن عمليات الربط الحضاري، والثقيف الحضاري، كانتا متلازمتين في النموذج التغييري النبوي؛ وهذا ما انتبه إليه مالك بن نبي رحمه الله بذكاء حيث قال :

(إلا أن الحضارة الإسلامية قد جاءت بالتحديد مرة واحدة، وصدرت فيهما عن القرآن الكريم الذي نفى الأفكار الجاهلية البالية، ثم رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية)^(٢).

الثقيف الحضاري والعصر العالمي

فكما أشرنا في موضوع الربط الحضاري، أنه يقتضي وعياً على التطورات الراهنة للبشرية، فإن نفس الشيء يستدعيه فهم مفصل الثقيف الحضاري.. ولكي نفهم النموذج التغييري الإسلامي، في :

- رؤيته، ورسالته، ومشروعه ،

- ومنهج تطبيقه ،

- ومنهج المحافظة عليه ،

(١) المقدمة . ص : ٤٨١ .

(٢) شروط النهضة . ص : ٨١ .

- ومنهج توريثه للأجيال ،
- وفي منهج استمراره وتواصله ،
- علينا أن نعي بأن هذا المفصل بحاجة إلى شروط، ومنهجيات، ووسائل، وأدوات، نذكر منها ضرورات قيام مؤسسات، من أجل :
- استقبال منتجات عالم الربط، من أفكار، وأشياء، وأشخاص، وتساؤلات، ومشكلات تحتاج إلى حلول .
- تأهيل الأفراد في مجال الوعي بالمشروع الاجتماعي، والبديل الإسلامي .
- تكوين الإنسان منهجياً، ومعرفياً، وروحياً، وسلوكياً، وتأهيله ليتطابق مع نمودجه .
- تشكيل القدرات الإنجازية لدى الأفراد ، والجماعات .
- الصياغة المشروعية، والتنفيذية لنظم النموذج الإسلامي، القانونية، والتشريعية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية... إلخ .
- ولكي تقوم مؤسسات الثقيف بهذه الوظائف وغيرها، فهي بحاجة إلى مايلي :
- إنشاء مؤسسات للفكر، والمعرفة، تقوم بإعداد مشاريع، ومنهجيات الثقيف .
- إنشاء مؤسسات للاتصال بين عالم الربط الحضاري، وعالم الثقيف الحضاري، بغرض مفصلة العمل التغييرى، وربطه ببعضه بعضاً، في وحدة عضوية متكاملة .
- مؤسسات التوجيه، والتقوم؛
- مؤسسات توزيع ونشر المشاريع، والمخططات، وتطبيقها على الأفراد والجماعات .
- مؤسسات استثمار الأفكار، والأشخاص، وتوليد الطاقة الحيوية، والبدائل الضرورية .

من هنا تظهر لنا أهمية هذا المفصل التغييري، كمرحلة وسيطة لازمة، تعود إليها الكلمة في نجاح المشاريع أو فشلها، وفي تزويد حركة التغيير بالأفكار، والمناهج في كل أطوارها السابقة واللاحقة، كما سنلاحظ بعد قليل، إن شاء الله .

ثالثاً : المنهج النبوي وعالم البناء الحضاري

هل يمكننا القول : بأن العملية التغيرية قد اكتملت، إذا توفر الشرطان السابقان، وهما :

- طرح المذهبية التوحيدية على المجتمع، ومحاولة ربط الناس بها؛

- تثقيف الناس على مشروعها الاجتماعي؟

في الحقيقة، يعتبر الشرطان السابقان، من الركائز الأساسية في أي عملية تغييرية، مهما كانت طبيعتها « مادية أو أخلاقية »، ولكنهما غير كافيين مالم ينزلا إلى أرض الواقع، كتشريعات، وسلوكيات، ومواقف يومية، تجسد المضمون الاجتماعي، للرسالة المتبناة. إذ يعتبر الواقع، في هذه الحالة بمثابة التحدي الحقيقي الذي يواجه عمليات الربط، والتثقيف. ففيه تتأكد المصادقية الاجتماعية للفكرة، ومشروعها، وتتأكد فيه الاستقامة، والصواب، والعاقبة.

وعلى هذا الأساس، تضطر الحركة التغيرية، وقيادتها، إلى الانتقال إلى المفصل الثالث من مفاصل التغيير في إطار الاطراد العام للعملية التغيرية بأكملها، وهو مفصل « البناء الحضاري ». وفيه تنزع الحركة إلى الواقع، وساحاته المتنوعة، لتطبق مضامينها، وتنظر لحركة المجتمع اليومية، وتقدم الأفكار العملية .. فهي مرحلة إرساء مؤسسات الميدان المتعلقة بـ :

- توفير شروط العبادة؛

- وشروط الإعمار، والانتشار في الأرض؛
 - وشروط الإنقاذ للناس من الظلمات إلى النور؛
 - والتعارف بين الثقافات والمجتمعات، على أساس نظرية « التقوى ».
- ففي هذه المرحلة، تبنى قدرة الحركة الادائية، والعملية . فبعد إن كانت في عالمي الربط، والتثقيف، قدرة نظرية، تصبح في هذا المفصل، قدرة عملية، فهي مرحلة « الوعي الواقعي البناء »، والتفاعل مع سنن الله في الذكر، والآنفس، والكون، واقعياً، استجابة للرؤية التوحيدية، بغرض تحقيق مقاصد الشارع في الخلق، وتثبيت، وحفظ حقوق الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل، والكون .
- فهو نقل للنظرية الحضارية ، ومشروعها، إلى أرض الواقع، وتحويل الوعي إلى قيم سلوكية، ومواقف ميدانية منظمة، تدخل في اطراد تسيير المجتمع .

جهد النبي والبناء الحضاري

ففي سياق تتبع النموذج التغييري النبوي، نجده قد مر بمفاصل التغيير الثلاثة :

- مفصل الربط الحضاري .

- مفصل التثقيف الحضاري .

- مفصل البناء الحضاري ..

فمن الوجهة التاريخية، نجد أن مفصل الربط الحضاري، قد امتد خلال الفترة المكية، مع التنبيه إلى ذلك التلازم الرائع، بينه وبين مفصل التثقيف الحضاري، كما أشرنا سابقاً . أما مفصل البناء الحضاري، فقد أعقب هاتين المرحلتين مباشرة، حيث انطلق واقعياً من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، مهد الحضارة الإسلامية الأولى، وفيها بدأ في الترتيبات العملية لبناء المجتمع

الإسلامي، وترسيم معالمه، وحدوده السياسية والجغرافية، وتشكيل مؤسساته الدينية والاقتصادية، والدعوة، والجهادية.

ثم تحرك النبي بعد عملية الترسيم الأولى، إلى إكمال عمليات الربط والتثقيف والبناء، في مستويات أخرى من العملية التغييرية، وفي ساحات جغرافية، وثقافية أخرى، حيث الدوائر المحلية، والدولية، والعالمية. وفي هذه المراحل بالذات انخرط الصحابة الكرام في عملية بناء واسعة النطاق، طالت كل العالم الإسلامي القديم، الذي وصله الدين الحق، عن طريق الدعاة الفاتحين.

البناء الحضاري والعصر العالمي

إن طبيعة البناء الحضاري أصبحت اليوم، ونحن على مشارف العصر العالمي، معقدة للغاية . ولذا فحاجتها ماسة جداً إلى الفعل المنهجي المنظم، وإلى الوسيلة الكفأة، والمناسبة، والمشروعة، وإلى الأسلوب الأمثل والفعال .

فلهذه المرحلة التغييرية موجباتها، وشروطها، ووسائلها، ومنهجياتها .. ومن بين وظائفها الأساسية :

- استقبال منتجات مفصلي الربط والتثقيف من أشخاص، وأشياء، وأفكار
- ثم تزويد هذه المفاصل بما تحتاجه من متطلبات، ولوازم؛
- بناء مؤسسات توجيه طاقات الأفراد، والجماعات، ومساعدتها على ممارسة أدوارها الاجتماعية .
- بناء مؤسسات لحماية المنجزات، والمحافظة على الحركة التغييرية، وخطها الفكري الأصيل .
- بناء مؤسسات الربط بين أجيال المجتمع، وتوريث الرسالة والمشروع، من خلال إرساء مناهج الاستمرار الحضاري .

المنهج النبوي وبناء إنسان الاستخلاف

إننا عندما نتأمل الجهد النبوي، نجدُه فعلاً انصب حول بناء هذا الإنسان النموذجي بمختلف صوره .. حيث وجدنا الرسول ﷺ وفر الجو الملائم لبناء الإنسان الخليفة، والداعية، والعالم، والمبلِّغ، والعسكري، والسياسي، والمجاهد، والقاضي، والتاجر، والفيلسوف، والمترجم، والطبيب، والمالي، والجمهور المسلم الواعي، الذي يدافع عن الإسلام، ويذود عنه في ساعات الخطر الداهم، كما كان الحال في حروب الردة، وفي الهجمة التنارية على العالم الإسلامي . وهذا الإنسان المنسجم مع الخطاب الإلهي، هو الذي بنى المجتمع الإسلامي العادل .. وشيد ثقافته الحضارية التوحيدية ..

إن إنسان الاستخلاف هو الإنسان، الذي يتطابق مع الخطاب الإلهي، ويستجيب لنداء الإسلام، ويمارس وظائفه الأساسية في : العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف، ويسمى دوماً إلى إيجاد الشروط التي تاهله لتقديم الإسلام للناس ، وتوفير الوسط الذي تعيش فيه تعاليمه، وتشريعاته، وتسمو فيه ذات الإنسان، وتتكرم، وتتصارع فيه الحسنة مع السيئة، فتغلبها الحسنة .

إن إنسان الاستخلاف الذي شاده النبي عليه الصلاة والسلام، هو من هذا الطراز الذي دفع بمشروع الإسلام إلى عالم الحضارة، حيث رابط هذا المجتمع في التاريخ أكثر من عشرة قرون كاملة .. ساهم خلالها في إثراء مسيرة الإنسانية بالعلم، والمنجزات الحضارية المتنوعة، التي ساعدت في وقت لاحق، الكثير من الأمم لتعيد بناء ذاتها الحضارية، مثل الأمة المسيحية .

فإنسان الاستخلاف هو الذي دفع بالمجتمع الإسلامي الوليد إلى عالم «الابتغاء الحضاري»، وعندما توقفت رسالة هذا الإنسان، ولم تستطع الأجيال

المتعاقبة تجديد العهد بهذه النوعية من البشرية الراقية، نزل المجتمع إلى مستوى دون المستوى الأول.. وتغير الإنسان غير الإنسان الأول، وجاء «إنسان التولي الحضاري»، الذي فتح عهد «التخلف الحضاري» في المجتمع الإسلامي.

إنسان المنهج النبوي

إن المنهج النبوي وهو يتحرك لبناء المشروع القرآني، انطلاقاً من بناء الإنسان، يضع في اعتباره نموذج هذا الإنسان، الذي يفترض فيه التأهل لحمل أعباء الاستخلاف في الأرض.

فإنسان السنة النبوية، مسؤول في كل ساحة يتواجد فيها (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)^(١) ومجد في النهي عن المنكر، والأمر بالمعروف، طبقاً لسنن الدعوات، وقوانين البلاغ المبين: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسلمه، فإن لم يستطع فليقلبه، وذلك أضعف الإيمان)^(٢) ومتق لله سبحانه وتعالى في كل موقع، ومخالف للناس بخلق حسن: (اتق الله حيثما كنت، واتبع الحسنة السيئة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن)^(٣).

فهو الساعي في الأرض، والضارب في مناكبها باحثاً عن رزقه، وقوته. تجده هناك في ساحات الحضارة، يحتطب من قيمها، وأخلاقها، وعلموها ومدنيتها، ومعاشها: (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه)^(٤)... (أطيب ما أكل الرجل، من كسبه)^(٥).

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه النسائي (صحيح النسائي) .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة .

(٥) رواه أحمد والحاكم والبيهقي والترمذي .

وهو الكيس، الفطن، الذكي، والمتحرز الحذر، المنتبه: (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)^(١) وليس بماكر، خداع، وغشاش، غير مؤتمن: (من غشنا فليس منا)^(٢).

نزاع إلى الادب، والخلق الحسن، والجمال: (إن الله جميل يحب الجمال)^(٣).

والمسلم يمثل مع إخوانه وحدة عضوية متماسكة، وبناءاً منسجماً مرصوفاً: (المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكت عينه اشتكى كله)^(٤) فهم كلهم متعاونون، ومتراحمون، لا يحبون الظلم، ويفرجون كرب بعضهم بعضاً: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه.. من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة)^(٥) كما أنهم متحابون: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)^(٦) وجارهم محفوظة حقوقه، ومحترمة محارمه: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن.. قيل: ومن يارسل الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه)^(٧) وجماعتهم لا تجتمع على الضلالة والظلم: (ما كان الله ليجمع هذه الأمة على ضلالة أبداً)^(٨) ولا يتخلفون عن المشورة إذا استدعتها الظروف.. ويجاهدون في سبيل الله: (إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله)^(٩).

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري ومسلم.

(٦) رواه البخاري.

(٧) رواه البخاري.

(٨) رواه الحاكم.

(٩) رواه أبو داود (صحيح أبي داود).

وإنسان الاستخلاف كذلك، متوازن في حياته، يربط بين الدنيا والآخرة، ويعرف وظيفة، وموقع كل واحدة في حياته ووجوده.

نموذج لإنسان الاستخلاف

لنأخذ نموذجاً من النماذج البشرية، التي أخرجتها مؤسسات البناء الحضاري التي كان يشرف عليها النبي عليه الصلاة والسلام.. ولغرض التحليل، سوف نختار نموذجاً يصور لنا العملية التغييرية النبوية في مفاصلها الثلاثة :

جاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير:

«أرسل سعد قبل القادسية، ربيعي بن عامر رسولاً إلى رستم، قائد الجيوش الفارسية، وأميرهم، فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة، وزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت، واللالي الثمين، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الامتعة الثمين، وقد جلس على سرير من ذهب.. ودخل ربيعي بثياب صفيقة، وسيف، وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل يركبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل، وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه، ودرعه، وبيضة على رأسه.. فقالوا له: ضع سلاحك؛ فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني، فإن تركتموني هكذا، وإلا رجعت.. فقال رستم: إئذنوا له. فاقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء، من عبادة العباد، إلى عبادة الله؛ ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فارسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه، ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات

على قتال من أبى، والظفر لمن يبقى.. فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم؛ فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم كما أحب إليكم، يوماً أو يومين؟ قال: لا بل حتى نكتب أهل رأينا، رؤساء قومنا. فقال: ما سنلنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث بعد الأجل، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.. فقال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أذانهم على أعلامهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قط أعز، وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك إلى هذا الكلب؛ أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام، والسيرة، وإن العرب يستخفون بالثياب والمأكول، ويصنون الحساب^(١).

لنتأمل بعمق هذا الكلام الرسالي، الذي لا يكف عن إعطاء السائرين في الكون بمعالم زاد المسير، لنحلل بعض جوانبه. إنَّ هذا الإنسان الجديد، هو منتج من منتجات المدرسة التغيرية النبوية، كما أنه يقدم لنا صورة لجندي بسيط في مؤسسات البناء الحضاري، وهو يؤدي واجبه اليومي في سياق تبليغ الإسلام للناس. إنَّ هذا الإنسان يحمل في ذاته (المبررات الكونية للإسلام)، وهو يتحرك بقوة الروح، والعزيمة التي منحت أياها قيم هذا الدين وتعاليمه، وضمائنه، ليحقق أهدافه في هذه الحياة والمتمثلة في: العبادة والإعمار، والإنقاذ، والتعارف - كما رأينا سابقاً.

عندما نتأمل موقع هذا الإنسان، وهو يمارس مهامه، وفي تلك اللحظة التي يقف فيها أمام رستم، ماذا نستنتج؟

الأمر الأول الذي نلاحظه، هو أنَّ هذا الإنسان، قد أنهى تكوينه الحضاري

(١) البداية والنهاية، العافظ ابن كثير، منشورات مكتبة المعارف، بيروت، السنة: ١٤٩٤هـ - ١٩٨٣م، ج٧، ص: ٤٠.

القاعدي، بمعنى أنه قد تخرج من :

- مؤسسات الربط الحضاري، بالرؤية والرسالة الإسلامية، حيث وعى أهدافه، واقتنع بها.. فهو في حالة ارتباط قوي برسالته، التي تتمثل في مشروع الإسلام عموماً؛

- ومؤسسات الوعي الحضاري للمشروع، فهو يتمتع بفقهِ محيط لأهداف الإسلام، وقيمه.

- ومؤسسات البناء الحضاري، والانخراط في الإنجاز للمشروع.

ونستدل على المفصل الأول من التكوين من خلال قوله :

«الله ابتعثنا لنخرج من شاء من العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام..» فهو مؤمن بهذه المنظومة الجديدة من الأهداف، ومجاهد من أجل تبليغها للناس، كما نلاحظ بأنه تجاوز مفصل الوعي، وبقوة عجيبة، فرغم أنه كان في موقف زينت له فيه الدنيا، وأعدت خصيصاً لإغرائه، وإذهاله، ولكن على العكس أذهلها، وأذهل أصحابها. فقد استحققر كل ذلك العالم، من الأشياء الماثلة أمام عينه، ففي هذه اللحظة الجمالية الحضارية، أعطى موقفه التاريخي الخالد، وبرهن على ارتباطه بأهدافه، ورسالته، ووعيه العميق لها، وأبان مدى مسؤولياته الكبيرة، التي تفرض عليه أن يؤدي واجبه، كممثل حضارة، لا كمجرد مبعوث من قبل قائد إسلامي، هو نفسه طراز آخر من النماذج الاستخلافية. فهو يعيش في موقف فرض عليه أن يلخص فيه رسالة الإسلام في كلمات واضحة، ومفهومة، بعيدة عن التكهن، والتفلسف، والخلط. كما فعل جعفر من قبله بسنوات في أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة وهو يخاطب النجاشي، ولنا أن نقارن المواقف لنتعرف على مدى التطابق الذي يعبر على نفس النموذج، الذي أخرجته المدرسة التغييرية النبوية، مع مراعاة الفارق الزمني.. فجعفر كان في العهد المكي، ورعي

كان في العهد المدني . لقد عبر رباعي - رحمه الله - عن تطبيق عالم مادي، لم تعد تسري فيه روح الحياة، ولم يعد له مفعوله القديم على النفوس الجديدة، وارتبط بعالم غيبي، يمدّه بمبررات أكثر إنسانية، وفعالية، وفطرية. كما وضعه أمام ضمانات عظيمة، لا يمكن تقديرها وفق المقاييس المتعارف عليها في عالم الناس، حيث أصبح لعالم الأشياء مفهوم آخر، أدمجه في منظومة تحقيق أهداف إنسانية، تخدم مصالح الإنسان في عالمه الحاضر، وعالمه الآخر.

ورباعي في الحقيقة، وفي ذلك الظرف، كان في المراحل المتقدمة للبناء الحضاري، للنموذج الإسلامي الاجتماعي، وبالضبط كان يمارس عملية (الإنقاذ) التي هي الهدف الثالث في منظومة الأهداف الحضارية الكبرى للإسلام. وهذا واضح في قوله «... ابتعثنا الله لنخرج...».. وكان كل كلامه نابع عن قناعة تامة بما يقول، ويفعل، وكانت الضمانات التي تبرر له سلوكه، وتملا عقله، ونفسه، وباطنه، حتى أصبحت تشع بالخير في الخارج، ويتضح ذلك من قوله «.. الجنة لمن مات على قتال من أبي، والظفر لمن يبقى..» وهذا الاستحضار، ليس من باب (المنتاج السياسي)، الذي ألفته المجتمعات القديمة، ولكن من باب التوافق مع سنن الله في الذكر، والأنفس، والكون.. السنن التي دفعته ليقول، وهو يجيب عن طلب رستم: «.. ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل...».. لقد حدد المصير بدقة، وعن علم، ودراية..

فموقفه سنني، لأنه قد وفر في تلك اللحظات شروط (سنة الإعداد) سواء الروحي، أو المعنوي، أو العملي، أو المادي، فهو قادر على أن يحقق عملية الإنقاذ، بتوفيق من الله، وتثبيتته، ونصرته..

ثم قدم لنا فصلاً كاملاً من فصول التغيير الحضاري، في معرض إجابته عن تساؤل رستم: «أسيدهم أنت؟ فقال: لا ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم...» إنه يتحدث عن شبكة العلاقات الاجتماعية، في أحسن ظروفها وانسجامها.. وفي خلاصة الكلام، يأتي رستم ليحكم على هذه النوعية البشرية الراقية، التي تغيرت معالم نفسياتها، وعقليتها، فتغيرت معها الكلمة، والسيرة، واللهجة، والهدف، والضمانة.. فقال: «..ويلكم لاتنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي، والكلام، والسيرة..» وكان رستم في تلك اللحظة أدرك جوهر التحول، وأصل التغيير، وأحس بأنه يتحدث مع نموذج بشري آخر، لم يعهده من قبل، في حياة الأمم السابقة. هذا النموذج الذي قال عنه خالد بن الوليد الصحابي الجليل المؤمن، والعسكري المحنك المظفر، والجندي الطائع عندما بعث لولاء كسرى على ألوية العراق:

« وإلا فوالذي لا إله غيره لا بعثن إليكم قوماً، يحبون الموت، كما تحبون الحياة...».. إن التغيير لما في النفس، هو الذي أنتج هذه النماذج الاستخلافية العالية، وإنه لتحول يعبر عن عظمة الإسلام، ورسالته، وأهدافه، وضمائنه ووعوده، وعن التربية النبوية المستقيمة على الطريقة، والمتطابقة مع سنن الله المنتشرة في الذكر، والآنفس، والكون. وعلى هذا الأساس، نستطيع أن نؤكد على أن التغيير الأصيل، هو الذي يكون موجهاً إلى تغيير النفس الإنسانية، أي رفع قدراتها الفهمية، والروحية، والعملية، التي تؤهلها لفهم عقيدتها وأهدافها، ورسالتها، واستيعابها لسنن الله العاملة في الذكر، والآنفس، والكون، لأن هذا التغيير يتبعه آلياً التغيير في الكلام، والعمل، والموقف. وعليه فالحركة التغييرية مالم تستهدف بالتغيير الإنسان في ذهنه، وقلبه، وجوارحه، فإنها ليست أصيلة.. والحركة الأصيلة كالتي غيرت ربيعي، هي التي تستطيع النفاذ إلى أقطار

النفس، وتستهدفها بالإفراغ من الاسقام، والملء بالخير، تبعاً لسنن الربط الحضاري ..

لقد تخرجت أمثال هذه النماذج تحت الرعاية الخاصة للرسول ﷺ وفي الورشات الإسلامية للبناء الحضاري، المختصة في بناء القدرات الفهمية، والقدرات الروحية، والقدرات العملية، والقدرات الجهادية، والإيعازية، والإنقاذية.

ومن الوجهة التاريخية العامة، نلاحظ بأن العمليات الأولى لبناء (إنسان الاستخلاف)، هي المقدمة الأساسية لبناء (مجتمع الاستخلاف)، و(ثقافة الاستخلاف)، كقوى حضارية كبرى، بإمكانها تغيير مسيرة الإنسانية نحو الأفضل، بتوفيق من الله عز وجل .. وعندما يبنى الإنسان، ويرتفع إلى مستوى الاستخلاف، فذلك دليل على اجتيازه المرحلة التي يكون فيها في «مؤسسات بناء المبررات الحضارية» وبالتحديد قد اجتاز العوالم الثلاثة للتغيير الحضاري، أي:

- الربط الحضاري، وتكون المبررات في مرحلة التشكل وفي تنام مستمر.

- والتفقيه الحضاري، وتكون المبررات في أعلى مستوياتها ودافعة للنشاط داخل النفس.

- وعالم البناء الحضاري، وتكون المبررات دافعة للنشاط داخل الواقع الاجتماعي، المعطل بكل تحدياته، وصعوباته، ويكون الإنسان، والمجتمع، والثقافة في حالة حركة مستمرة ..

خاتمة

الحمد لله الذي وفقني لهذا، وأمدني من العون ما مكنتني من إنجاز هذا العمل المتواضع، الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم، راجياً من المولى تبارك وتعالى أن يعيننا جميعاً على الاستفادة منه، وذلك بتقبل النصائح والتوجيهات، واستقبال الانتقادات، والتصويبات، بقلوب شجاعة، وعقول نيرة، ونفوس على الحق صابرة، وفي سبيله ماضية، ومن أجله مضحية. فما أرجوه من قارئ هذا الكتاب هو أن يدلني على الخطأ إن اكتشفه، ويصبرني على العيب إذا لمح، ويوجهني إلى الصواب، كلما راني ملت عنه، وأخذت مسلكاً غيره، وحدث عن طريق الحق، وتنكبت عن العلم الذي ينفع الأمة، ويسد خطاها، ويعينها على استعادة عافيتها، حتى تعود لاداء دورها في العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف كما أمر المولى تبارك وتعالى.

إن القارئ الكريم سيلاحظ أفكار هذا الكتاب المتنوعة، وسيكتشف أن بعضها لم يتضح بالشكل المستوفي للشروط، وأن بعضها ينقصه العمق، كما أن بعضها الآخر يفتقر إلى التحليل، والتمثيل، والتأصيل.. وهكذا سيسجل ملاحظاته المختلفة، وأشد الناس حاجة إلى هذه الأمور، هو المؤلف. ومؤلف هذا الكتاب من أحوج الناس إلى التعلم، وطلب المعرفة، وتلقي النصح، والترشيد من الأساتذة، والعلماء، والمفكرين المتخصصين في هذه الحقول العلمية.

وفي ختام هذه الدراسة أريد أن أنبه إلى أن هذا الكتاب هو القسم الأول في هذه السلسلة، التي خصصتها لدراسة قضايا التغيير الحضاري، في ضوء السنة النبوية. وهي محاولة إنسان مسلم، مقصده الأساس، هو المساهمة في تحريك طاقات الأمة الحيوية من الأفكار، والأشخاص والأشياء، لتسير على خط «الاستخلاف». وكما يعلم القارئ الكريم أن الذي يريد أن يخوض معركة الاستخلاف في الأرض، بحاجة إلى منهج تغييري، وكما رأى القارئ في الكتاب، أهمية المنهج النبوي في التغيير الحضاري الجديد.. وعليه فالحركة الإسلامية المعاصرة، بحاجة إلى فتح فصل كامل من فصول التغيير، يتعلق بدراسة هذا المنهج الفطري المنسجم مع قانون الحياة السليم.

والله من وراء القصد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق الدكتور : شعبان محمد إسماعيل .
- أزمة العقل المسلم ، أبو سليمان عبد الحميد أحمد ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة : ١٩٩١ م . ط : ١ .
- أفكار ورجال - قصة الفكر الغربي - كرين برنتن ، ترجمة : محمود محمود .
- إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات ، الدكتور : طه جابر فياض العلواني ، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة : ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م ، ط : ١ .
- إقرأ وربك الأكرم ، جودت سعيد ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .
- البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت ، السنة : ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م .
- البرهان ، إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني ، تحقيق وتقديم ، د. عبد العظيم الديب .
- تجديد التفكير الديني في الإسلام ، محمد إقبال ، ترجمة : محمود عباس ، الطبعة الثانية ، السنة : ١٩٦٨ م .

- حتى يغيروا ما بأنفسهم ، جودت سعيد ، دار الفكر ، دمشق ، ط: ٦ ، السنة : ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- السنة النبوية ومنهجها في بناء الحضارة والمعرفة ، ندوة عقدت في عمان ما بين ١٥ - ١٩ ذي القعدة ١٤٠٩هـ .
- السيرة النبوية ، ابن هشام ، الطبعة الثانية ، السنة : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .
- شروط النهضة ، مالك بن نبي ، ترجمة : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دار الفكر دمشق ، السنة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ، محمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة الرابعة ، السنة : ١٩٨٢م .
- كيف نتعامل مع السنة النبوية - معالم وضوابط - الدكتور يوسف القرضاوي ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .
- العلم في منظوره الجديد ، روبرت أغروس و جورج . ستاسنيو ، كتاب عالم المعرفة رقم : ١٣٧ ، السنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- مجموع الفتاوى ، ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ، السنة : ١٣٤٨هـ .
- مختصر تفسير ابن كثير ، الحافظ ابن كثير ، اختصار وتحقيق : محمد على الصابوني ، دار القرآن الكريم بيروت ، الطبعة الثالثة ، السنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٣م .

- المستصفي من علم الأصول ، أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، منشورات الشريف الرضي ، قم ، الطبعة الثانية ، ١٣٤٢هـ.
- معيار الوحي في الفكر الإسلامي ، البروفيسور عبد المجيد مكين ، ندوة عقدت باليابان عن قضايا الحضارة الإسلامية واليابان ، طوكيو ، ٢٠ - ٣٠ مارس ١٩٨٠م (باللغة الإنجليزية).
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق : الدكتور عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الثالثة.
- الموافقات في أصول الشريعة ، أبو إسحاق الشاطبي ، دار الفكر العربي.
- ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق . السنة : ١٩٨١م.
- دراسة في البناء الحضاري - محنة المسلم مع حضارة عصره - الدكتور : محمود محمد سفر ، كتاب الأمة ، رقم ٢١ ، الطبعة الأولى ، السنة : ١٤٠٩هـ .
- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية ، الشيخ الطيب برغوث ، دار البعث للطباعة والنشر - قسنطينة ، الجزائر - ، الطبعة الأولى .
- فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ، مالك بن نبي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق ، السنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م .
- هذا الدين ، الشهيد سيد قطب ، الاتحاد الإسلامي للمنظمات الطلابية ، الطبعة الرابعة ، السنة : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- * تقديم بقلم الأستاذ عمر عبيد حسنة ٧
- * تمهيد ٣٧
- * الفصل الأول : الإطار العام لدراسة المنهج النبوي ٤١
- أهمية النظر الكلي في قضايا السنة ٤١
- معالم منهجية الرسول ﷺ في البلاغ المبين ٤٥
- البعد المقاصدي للمنهج النبوي ٤٦
- البعد البلاغي للمنهج النبوي ٥٠
- ١ - مفهوم البلاغ المبين وشروطه ٥٣
- ٢ - محاور نظرية البلاغ المبين ٥٥
- دروس من الفقه النبوي ٦٢
- * الفصل الثاني : المنهج النبوي والتغير في العصر العالمي ٦٥
- وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري ٦٦
- من سنن البناء الحضاري ٦٧
- خصائص الواقع العالمي الراهن ٦٩
- المنهج النبوي وقدرته على البناء ٨٢
- من أجل قراءة أخرى للسنة ٨٣
- المنهج النبوي يحدد المازق العالمي الراهن ٨٦

٩٢	- منطقية السنة في التعامل مع الظواهر الاجتماعية
٩٧	- السنة النبوية مصدر للثقافة الإسلامية
١٠٠	- المنهج النبوي ومفهوم التغيير الحضاري
١٠٢	- التغيير الحضاري في ضوء وعي المنهج النبوي
١٠٤	* الفصل الثالث : المنهج النبوي كمركب حضاري
١٠٤	- مشكلة توجيه العملية التغييرية
١٠٨	- المغزى الثقافي لميلاد الجماعة التغييرية
١١١	- المنهج النبوي والنظرة الكلية للمشكلة
١١١	- أولاً : الرؤية الكونية
١١٤	- ثانياً : الرؤية الاجتماعية
١١٧	- المنهج النبوي في بناء الحضارة العالمية
١١٨	- المحاور الثلاثة للمنهج النبوي :
١٢٠	- أولاً : المنهج النبوي وعالم الربط الحضاري
١٣٢	- ثانياً : المنهج النبوي وعالم التثقيف الحضاري
١٣٩	- ثالثاً : المنهج النبوي وعالم البناء الحضاري
١٤٢	- المنهج النبوي وبناء إنسان الاستخلاف
١٥١	* خاتمة
١٥٣	* المصادر والمراجع
١٥٦	* الفهرس

وكلاء التوزيع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	□ دار الثقافة - الدوحة	٤١٤١٨٢	ص.ب. : ٨١٥٠ الدوحة
	□ دار الثقافة - قسم توزيع الكتاب	٤١٣٤٧١	فاكس : ٤٣٦٨٠٠ - بيجوار سوق الجبر
الإمارات	□ مكتبة دار الأمان	٣٤٤٨٣٠	ص.ب. : ٤٦٩٥ أبو ظبي
الإمارات	□ المكتبة الحديثة	٦٥٥٦٢٢	ص.ب. : ١٥٥٤٠ العين - فاكس ٦٦٩٥٤٠
الإمارات	□ جمعية الإصلاح والتوجيه الاجتماعي	٦٦٥٦٥٤	ص.ب. : ٤٦٦٣ دبي - فاكس ٦٦٢٠٧١
البحرين	□ مكتبة الأديب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (للطاعة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة ميس)	ص.ب. : ٢٨٧ البحرين فاكس ٢١٠٧٦٦
السعودية	□ شركة تهامة للتوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	ص.ب. : ٩٤٠٩ جدة ٢١٠٢١٤١٣ - شارع الملك فهد - خلف أسواق النخيل فاكس : ٦٦٠٧٦٠٠
عمان	□ مكتبة الثقافة الإسلامية	٢٩٢٩٣٤ ٢٩٤٩٨٦١	ص.ب. : ١٨٦٨٢ ظفار - صلالة
الكويت	□ مكتبة دار النصار الإسلامية	٢٦٦٥٠٤٥	ص.ب. : ٤٣٠٩٩ - حولي - شارع المتى - رمز بريدي ٢٣٠٤٥ فاكس : ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥١١ - ٦٠١٥٠١ ٦٠١٩١١	ص.ب. : ٩٦٠٦٥٤ - عمان فاكس : ٦٠١٩٩١
اليمن	□ مكتبة الجبل الجديد	٧١٣٦٣ - ٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١ - ٢٧٠٣٨	ص.ب. : ٥٤٤ - صنعاء
السودان	□ دار آت - توزيع	٧٥٥٨٥ - ٧٩٤٦٠ ٨٠٥٨٨	ص.ب. : ٣٥٨ - الخرطوم
مصر	□ مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤ ٧٥٨٨٨٨ - ٧٤٨٨٨٨	ص.ب. : ٧ القاهرة - فاكس : ٥٧٤٨٧٠١
المغرب	□ الشركة المغربية للأدبية للتوزيع - سبيرس	٢٤٩٢٠٠	ص.ب. : 70 - 13008 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 - فاكس ٢٤٩٢١٤
إنكلترا	□ دار الرعاية الإسلامية	(01) 272 - 5170/ 263 - 3071	Muslim Welfare House 233, Seven Sisters Road, London 2DA. Tefax No: 8812176 MUSLIM G Registered Charity No: 271680

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠ فلس
الإمارات	٥ دراهم
البحرين	٥٠٠ فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	٥ ريالات
السودان	٢٥ جنيهاً
عمان	٥٠٠ بيسة
قطر	٥ ريالات
الكويت	٥٠٠ فلس
مصر	٢ جنيه
المغرب	٨ دراهم
اليمن	١٢ ريالاً
○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقى دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعادله.	



كتاب
الإمام
Al Imam

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٧٣٠٠

فاكس : ٤٤٧٠٢٢

برق : الأمة - الدوحة

ص . ب : ٨٩٣ الدوحة - قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٥ لسنة ١٩٩٥ م

الترقيم الدولي : ٣ - ١٣ - ٢٣ - ٩٩٩٢١



كتاب
الإمام
Al Iqbal Press

صدر منه :

- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية
« طبعة ثالثة » - الشيخ محمد الغزالي
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف
« طبعة ثالثة » - الدكتور يوسف القرضاوي
- العسكرية العربية الإسلامية
« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب
- حول إعادة تشكيل العقل المسلم
« طبعة ثالثة » - الدكتور عماد الدين خليل
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري
« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق
- المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري
« طبعة ثالثة » - الدكتور محسن عبد الحميد
- الحزمان والتخلف في ديار المسلمين
« طبعة ثالثة + طبعة إنجليزية » - الدكتور نبيل صبحي الطويل
- نظرات في مسيرة العمل الإسلامي
« طبعة ثانية » - عمر عبید حبہ
- أدب الاختلاف في الإسلام
« طبعة ثانية » - الدكتور طه جابر نياض العلواتي
- التيارات والمعاصرة
« طبعة ثانية » - الدكتور أكرم ضياء العمري
- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي
« طبعة ثانية » - الدكتور عباس محجوب

- المسلمون في السنغال - معالم الحاضر وآفاق المستقبل
« طبعة أولى » - عبد القادر محمد سيلا
- البنوك الإسلامية
« طبعة أولى » - الدكتور جمال الدين عطية
- مدخل إلى الأدب الإسلامي
« طبعة أولى » - الدكتور نجيب الكيلاني
- المخدرات من القلق إلى الاستعباد
« طبعة أولى » - الدكتور محمد محمود الهواري
- الفكر المنهجي عند المحدثين
« طبعة أولى » - الدكتور همام عبد الرحيم سعيد
- فقه الدعوة ملامح وآفاق في حوار
الجزء الأول والثاني « طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ عمر عبيد حسنة
- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر
« طبعة أولى » - الدكتور زغللول راجب النجار
- دراسة في البناء الحضاري
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمود محمد مسفر
- في فقه التدين فهمًا وتنزيلًا
الجزء الأول والثاني « الطبعة الأولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبدالمجيد النجار
- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات - التوزيع - الاستثمار - النظام المالي)
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور رفعت السيد العروسي
- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية - دراسة مقارنة
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل
- أزممتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور أحمد محمد كتان
- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور عبد العظيم محمود الديب
- مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني
- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب - الدكتور ماجد عرسان الكيلاني
- الصحوة الإسلامية في الأندلس
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور علي المتصر الكتاني
- اليهود والتحالف مع الأقوياء
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي
- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ منصور زويد المطيري
- النظم التعليمية عند المحدثين
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الأستاذ المكي أقبلاية
- العقل العربي وإعادة التشكيل
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور عبد الرحمن الطبري
- إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور يوسف إبراهيم يوسف
- أسباب ورود الحديث
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد رافت سعيد
- في الغزو الفكري
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح
- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الجزء الأول) + (الجزء الثاني)
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور أكرم ضياء العمري
- فقهه تغييير المنكر
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور محمد توفيق محمد سعد
- في شرف العربية
« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر - الدكتور إبراهيم السامرائي



سازمان اسناد و کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران
ص. ب. ۱۶۵ - الدوحة - قطر



د. إبراهيم الفزاري

- من مواليد رأس العين ، ولاية باتنة ، الجزائر .
- دراسات عليا في علوم الوحي والعلوم الإنسانية .
- شارك في العديد من الدراسات المنهجية في الصحف والمجلات .
- عمل محاضراً في الجامعة الجزائرية في قضايا الاقتصاد والحضارة .
- نشرت له عدة دراسات في مجلات وصحف ، في مجالات : الاقتصاد الإسلامي ، التغيير الاجتماعي ، البناء الحضاري ، الثقافة .. إضافة إلى دراسات أخرى حول أفكار ابن خلدون ، ومالك بن نبي رحمهما الله .

■ لقد مارس الرسول ﷺ ، عمليات الربط الحضاري ، على المستوى : النفسي والاجتماعي ، وحقق فيها أعلى مستويات الإتقان المنهجي والثقافي ، وترك لنا نموذجاً لبناء حضاري عالمي شامخ ، بمقدوره أن يقدم لنا « الهداية الحضارية » ، كلما استدعيناها بوعي ، وفهمناه بعمق ..

■ الوعي المنهجي ، هو الوعي الذي يعطي للحركة التغييرية ، القدرة اللازمة لفهم سنن الذكر ، وسنن الأنفس ، وسنن الكون ، ذلك أن فهم العلاقة بين هذه الأنواع من السنن ، هو الذي يجعل المشكلة الحقيقية للأمة بيئة بدون غموض ، وممكنة الحل في حدود الطاقة البشرية .

■ لا بد لإعداد المشاريع التربوية ، من مراعاة توزيع الخريطة الثقافية ، والجغرافية للناس ، وقدراتهم ، واستعداداتهم ، وذلك حتى تصبح تربية اجتماعية ، تطول كل شرائح المجتمع ، ومؤسساته .. فكل شريحة تحتاج إلى فهم معادلتها ، والأسلوب الأمثل في التعامل مع قضاياها ، ومتطلباتها .

■ في ظل الطرح الإسلامي ، يبدو لنا معيار الوحي ، هو المدخل الوحيد لدراسة مشكلات وقضايا الفكر الإسلامي ؛ إذ لا تجدي الطريقة العلمية الحديثة شيئاً ، في استكناه خبايا الظواهر الإسلامية ، ومغازيها الحقيقية ، وأبعادها الجهرية التي لا يمكن فهمها إلا في ضوء معيار الوحي .

(المفكر السيلاني البروفيسور عبد الحميد مكنين)